القسم الأول

بحثا عن التعريفات والمناهج
طبيعة الدبلوماسية وبدائلها
الدبلوماسية عبر ثلاثه قرون
بين الدبلوماسية القديمة والجديدة

الفصل الأول

بحثا عن التعريفات والمناهج

اعتمدنا في هذا الفصل على:-

1 - MODERN DIPLOMACY. THE ART AND THE ARTISANS.
Edited by: Elner - Plisch - ke. Amenicav Interpise Institute, 1979

2 - RONALD P., BARSON. MODERN DIPLOMACY, LONG MAN, LONDON, NEWS.,1992.

- K.N. PANIKKAR. THE PRENCIPLE AND PRACTICES of DIPLOMACY. ASIA PULSLISLUNG HOUOE. BOMBAY

تتعدد تعريفات الدبلوماسية وتتنوع: فثمة ما تحصرها فى عملية التفاوض، وبهذا الشكل تعتبرها أنها «إدارة العلاقات عن طريق التفاوض»، وهى «استخدام شخصيات معتمدة ACCREDITED لإدارة العلاقات بين الحكومات»، وتتخذ تعريفا بسيطا باعتبارها «الطريقة التى تدار بها العلاقات الدولية»، ويعطى أحد التعريفات أهمية خاصة للدبلوماسية ودورها فهى «خط الدفاع الأول»، وهى «الفن والعلم الذى تحاول به الدولة تحقيق أهدافها فى السياسة الخارجية وتفادى الصراع المسلح»، بهذا المعنى يمكن القول «أن الدبلوماسية تنتهى حين تبدأ الحرب، وتبدأ حيث تنتهى» وبهذا المعنى أيضا فإن «الدبلوماسية والاستراتيجية هما جوانب مكملة لهذه السياسة وهى فن إدارة العلاقات مع دول أخرى لإنماء المصلحة الوطنية».

ويعرفها سير آرنست ستاتو ERNEST STATOW بأنها «تطبيق الحيلة والذكاء فى إدارة العلاقات الرسمية بين الحكومات والدول المستقلة».

ويعرف قاموس إسكفورد الدبلوماسية «بأنها إدارة العلاقات الدولية عن طريق المفاوضات، والمنهج والأسلوب الذى يدار بسفراء ومبعوثين، وهى عمل وفن الدبلوماسى».

ويضيق ويتسع تعريف الدبلوماسية من مؤرخ لآخر، فبينما يحصرها البعض كما رأينا فى المفاوضات، يعطى لها البعض الآخر وظائفاً أوسع ويجعلونها تشمل: التمثيل PRESENTATION باعتبار أن المبعوث الدبلوماسى هو ممثل بلده والمتحدث باسمها والمفوض لكى يفعل ذلك، والمفاوضة NEGoTIATION كأحد وظائف ومهام الدبلوماسى ـ وليس كل وظائفه ـ وبمقتضاها فهو مفوض للتفاوض باسم حكومته للتوصل إلى اتفاق AGREEMENT أو معاهدة TREATY وهو قد يقوم بذلك بمفرده أو بمساعدة معاونين أو مستشارين إما من سفارته أو توفدهم له حكومته. وكتابة التقارير REPORTING وهى الأداة التى يوصل بها إلى حكومته كل ما يسمعه ويقرأه ويراه عن أوضاع البلد الممثل فيها واتجاهاتها ومواقفها وكذلك نتائج اتصالاته ومقابلاته مع المسئولين حول أمور وقضايا العلاقات بين البلدين سواء المتصلة بعلاقاتهما الثنائية أو مواقعهما من قضايا اقليمية أو دولية تهمهما. وقد يأخذ التقرير عدة أشكال وفقا لمضمونه، وحجمه، ودرجة سريته، وعجلته URGENCY ، ووفقا لهذا فقد يأخذ شكل خطاب LETTER ، أو مذكرة NOTE، أو تقرير REPORT ، وكل هذه الأشكال ترسل بالبريد من خلال الحقائب الدبلوماسية DIPLOMATIC VOUCHE ، والتى قد تكون عادية أو غير مصحوبة

UNACCOMBANIED أو مع حامل حقيبة DIPLOMATIC COURAIER الامر الذى يحدده درجة سرية وعجلة المكاتبات. كما قد يكون هناك من المعلومات التى يود المبعوث الدبلوماسى إبلاغها لحكومته على وجه السرعة، ولهذا فقد تأخذ شكل البرقية TEL-EGRAM ، فإذا لم يكن له درجة سرية، فيتم إرساله بالتلكس، أو الفاكس، أما إذا تضمنت معلومات على درجة عالية من السرية فإنها ترسل برقية رمزية عن طريق الشفرة CODE . أما الوظيفة الرئيسية الرابعة التى يتضمنها التعريف الواسع للدبلوماسية فهى: حماية المصالح PROTECTING OF INTERESTS وهى وظيفة تتضمن فى ذاتها معنى واسعا يشمل كل ما يمس مصالح بلاده فى الدولة المعتمد لديها فى كل المجالات.

ويعرف الدبلوماسي البريطانى البارز BARSON الدبلوماسية بأنها تعنى بالنصح، وصياغة، وتنفيذ السياسة الخارجية ADVISING, SHAPING AND ImpLEMENTING OF FOREIGN POLICY

وهذا التعريف لا ينظر إلى الدبلوماسية باعتبارها فقط أداة تنفيذ السياسة الخارجية، وإنما على أنها أيضا تساهم فى توجيه وصياغة هذه السياسة. وهو ما نستطيع أن نرى منطقه واتساقه مع الممارسة الدبلوماسية الفعلية، ذلك أنه لا شك أن تقارير ، وتقديرات ونصائح السفير حول قضية من القضايا أو أوضع ما فى علاقة بلاده بالبلد المعتمد فيها، أو حول وضع أو حدث إقليمى، إنما يساهم فى تحديد حكومته لمواقفها من كل ذلك.

وتثير تعريفات الدبلوماسية ووظائفها العلاقة بين الدبلوماسية وقضايا هامة مثل السلام. وقد تصور البعض توافقا مطلقا بين الدبلوماسية والسلام وإلى حد جعلهم يطلقون على وزارات الخارجية: وزارة السلام DEPARTEMENT OF PEACE وقد يكون هذا التصور عن حق باعتبار أن جوهر الدبلوماسية هو تسوية الخلافات بالطرق السلمية وخلق بيئة وعلاقات سلمية وتعاونية أو على الأقل تفادى الصدام والمواجهة مستخدمة فى ذلك إلى جانب الجهود اليومية للمبعوث الدبلوماسى، أساليب مثل: التوفيق ACOMMODATION والوساطة MEDIATION ، والتصالح CONCILIATION ، والمفاوضة NEGATIATION . هذا الترابط بين الدبلوماسية والسلام هو الذى جعل هانز مورجانتو يعتقد: أن الدبلوماسية التى تنتهى بالحرب تكون قد فشلت فى مهمتها الأولى وهى تنمية المصالح الوطنية بالطرق السلمية.

غير أنه رغم الترابط القائم بين الدبلوماسية والسلام إلا أنه من ناحية أخرى، فإن الدبلوماسية والحرب ليسا منفصلين تماما. وكما يوضح كوفيس رايت «إن الدبلوماسية

يمكن أن تعمل لخلق ظروف ملائمة للحرب وللمساعدة فى كسب الحرب واستخلاص أقصى ميزة لكسب الحرب أو تقليل ما قد يترتب على خسارتها»، ويستخلص «أن الدبلوماسية مكملة للحرب، وهى أيضا، وفى بعض الظروف بديل لها».

وترتبط تعريفات الدبلوماسية، منهجيا ووظيفيا: بمقاصدها وأهدافها، وهذه الأهداف تتضمن أهدافا ووظائفا رئيسية، كما تتضمن تقسيمات فرعية، وجميعها تصب وتحدد مهام المبعوث الدبلوماسى ومسئولياته.

فيما يتعلق بالأهداف ومجالات العمل العريضة للدبلوماسية، يحدد مؤرخى الدبلوماسية عددا من الأهداف: وأول هذه الأهداف هو التمثيل REPRESNTATION وهو يشمل التمثيل الرسمى FORMALE والذى يتضمن تقديم أوراق الاعتماد PAESENTATION OF CREDENTIALS، والبروتوكول وشئون المراسم، والاشتراك فى الجوانب الاجتماعية للمجتمع الدبلوماسى، غير أن أهم مظهر لهذه الوظيفة هو التمثيل ذو المضمون SUPSTANTIVE والذى يتضمن شرح والدفاع عن السياسات القومية وتفسير السياسات الخارجية والداخلية للدولة المستقبلة. وفى نطاق التمثيل ذو المضمون فإن السفارة إذا كانت تعمل بشكل صحيح فإن عليها أن تحدد القضايا الرئيسية فى صلاتها بين حكومتها والبلد التى تعمل فيها. وكما يلاحظ همفرى تريفيليان «بالإضافة إلى التفاوض، فإن هدف السفير الأساسى هو أن يبعث بتقاريره حول الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى البلد التى يعمل فيها، وعن أحاديثه مع القادة السياسيين والرسميين والشخصيات العامة الذين لهم تأثير على المسرح الداخلى. وأهم من كل شىء فإن التقرير الذى يجىء فى وقته حول التطورات المعاكسة هو أحد الوظائف الرئيسية للسفارة وهو يتطلب خبرة كبيرة، وقدرة على الحكم وشجاعة سياسية».

أما الوظيفة الثالثة فهى الإعداد لمبادرات وسياسات جديدة فى العلاقات بين البلدين، فتطوير وديناميكية هذه العلاقات تتطلب فتح مجالات وآفاق جديدة لها فى الميادين المختلفة، والمبعوث الدبلوماسى المقيم هو المهيأ لاقتراح وطرح أفكار جديدة بحكم وعيه وبظروف إمكانيات بلده والبلد الذى يعمل فيه والمجالات التى يمكن أن يلتقيا ويتعاونا فيها.

وكاستمرار لوظيفة الدبلوماسية فى ضمان علاقات وبيئة سلمية بين البلدين، فإن اهتمام الدبلوماسية ينصب فى حالة نشوء بوادر صراع أو تطوره على التخفيض منه ومحاولة حصره، والعمل على إعلاء العناصر الأساسية والعوامل التى توحد بين البلدين أكثر من تلك التى تفرقهم سواء فى العلاقات الثنائية أو المتعددة.

وامتدادا لهذه الوظيفة الرئيسية، فإن الدبلوماسية مسئولة عن المساهمة فى عملية التغيير المنتظم ORDERLY CHANGE لعلاقات البلدين، وكما عبر آدم واطسون «فإن الهدف الرئيسى للدبلوماسية ليس فقط إدارة النظام وإنما إدارة التغير».

وأخيراً، وعلى مستوى أكثر عمومية، فإن ثمة وظيفة هامة للدبلوماسية هى خلق وصياغة وتعديل مجموعة واسعة من القواعد والقوانين الدولية التى تتضمن المعايير المنظمةNORMATIVE AND REGULATORY وهى فى ذاتها التى تقيم هيكل النظام الدولى.

وإجمالا لهذه الوظائف الأساسية للدبلوماسية وأهدافها العامة، يحدد مؤرخى الدبلوماسية هذه رسالة الدبلوماسية كما تستمد من هذه الأهداف فى ثلاث مجالات رئيسية:

١ ـ محاولة تحديد المصلحة المتبادلة MUTUAL INTEREST بين الدول من أجل تشجيع سياسة مشتركة.

٢ ـ إن لم يكن من الممكن تحقيق ذلك وانتفت إمكانية وجود مصالح مشتركة، يصبح مهمة الدبلوماسى تطوير توازى فى المصالح PARALLELISM بين الدول من أجل تشجيع سياسات مكملة CONMPLEMENTARY أو على الأقل غير متصارعة.

٣ ـ فإذا تعذر وجود مصالح متبادلة أو متوازية، تبقى مهمة إدارة عدم الاتفاق بين الدول لكى تظل بعيدة عن الحرب والصراع.

غير أنه فى تفصيل أهداف وغايات الدبلوماسية يجب أن نؤكد باستمرار أن الهدف الرئيسى لكل العلاقات الدبلوماسية هو حماية مصالح بلد الدبلوماسى. والمصلحة الأساسية لكل دولة هى بالطبع أمنها الخاص. غير أن أمن الدولة يمكن أن يتهدد لا بمجرد الغزو العسكرى، رغم أن هذا هو الشكل الكلاسيكى الذى ألفناه فى التاريخ، ولكن هذا الأمن يمكن أن يتهدد كذلك بالتسلل الاقتصادى، والتحكم فى مناطق استراتيجية حولها، وبضمان نفوذ سياسى داخل البلد .. إلخ... ولذلك فإنه هدف الدبلوماسية أن تكون متيقظة وأن تحبط سياسات الأمم الأخرى المناقضة لسياسات بلده.

ولكن كيف تعمل الدبلوماسية على حماية هذه المصالح؟ وبداءة فإنه يكفى القول أن السياسة الخارجية لدولة ما إنما توجه لتقوية العلاقات مع الدول الصديقة وتحييد القوى

المعادية لها. وبالمفاوضات تنشد الدولة أن تجمع حولها أصدقاء وحلفاء ومثل هذه الصداقات والتحالفات تنشأ فى بعض الأحيان من مصالح مشتركة، مثل خطر من عدو مشترك محتمل. ولكن حتى فى هذه الحالات فإن العمل الدبلوماسى الصبور والحريص ضرورى قبل أن يصبح من الممكن تحويل إدراك المصالح المشتركة إلى تحالف بتعهدات محددة.

أما تحييد القوى المعارضة لمصالح بلد الدبلوماسى فهو مظهر آخر لنفس السياسة. ويرتبط بذلك هدف جوهرى من أهداف السياسة الخارجية لبلد ما وهو منع دول أخرى من أن تتجمع ضدها، وهذا يعنى أنه قد يكون عليها أن تقبل حلولا وسطا مع بعضها، وأن تظهر التأييد ، أو أن تنكر العون والمساعدة عن أخرى. فإن فشلت كل هذه الأساليب وأصبح من الضرورى فى النهاية استخدام القوة فإنه واجب الدبلوماسية أن تضمن أنها تستخدم فى أكثر الظروف فائدة وأن تقنع العالم أن قضيتها عادلة وأنها تدافع عن حقوقها، وأنها ليست المعتدية. وقد كان من تفوق الدبلوماسية البريطانية والفرنسية خلال الحرب العالمية الأولى هو إقناعها العالم أن ما كانت حربا للمصالح الوطنية هى حرب لإنهاء الحرب ولإنقاذ المدنية، ولحماية المجتمع من أن يتحول إلى البربرية.

إن ثمة شىء واحد لا يمثل هدفا للدبلوماسية. وهو أن تصدر أحكاما أخلاقية على الآخرين أو أن تتصور أن هدفها هو أن تصحح أوضاع شعوب أخرى. إن شعوب العالم لا تحكم وفقا لنمط واحد، كما أنهم لا يعتنقون نفس العقائد السياسية والاقتصادية والاجتماعية. فثمة ملكيات، وجمهوريات، وديكتاتوريات وديموقراطيات، ونظما شمولية، وجميعها تقوم على أساس قانونى وتعمل بفاعلية داخل أراضيها. وهم جميعا يتبعون مثلا اجتماعية مختلفة، ونظما اقتصادية ومذاهب سياسية وكلا منها مقتنعة أن نظامها هو الأفضل.

وباعتبار أن الهدف الأول للدبلوماسية هو حماية أمن بلدها والدفاع عن حقوقها، فإنه مما لا جدال فيه أن هذه الدبلوماسية يجب أن تعمل على أساس الأخذ والعطاء. فأى دبلوماسية تقوم على ما قد يعتبر أحد أنها حقائق نهائية ومطلقة محكوم عليه بالفشل. ومع هذا فإن هذا لا يعنى أن الدبلوماسيين لا يستخدمون غالبا لغة الأخلاقيات العالية فى أحاديثهم. وفى الحقيقة فإن تبرير وإعطاء أساس للمصلحة الذاتية فى ضوء معانى ذات

قيمة عالية مثل السلام العالمى، والحق الطبيعى للشعوب فى أن تكون حرة ، وقدسية الوعد، تبدو أكثر طبيعية فى الدبلوماسية والعلاقات الدولية من غيرها من مظاهر الحياة السياسية.

وما دام أن الهدف هو حماية المصالح الوطنية، فإن هناك حقيقة كبيرة فى وجهة النظر القائلة بأن وظيفة الدبلوماسى هى بناء حسن النية GOOD WILL وتنميتها بكل ما يمتلكه من مصادر. فإذا كانت ميول الدولة المعتمد لديها صديقة أو على الأقل ليست عدائية، فإن تنمية حسن النية تجاه بلده سوف يقوى الموقف الوطنى ويساعد على حماية مصالحها. وحتى فى بلد ذات ميول عدائية محتملة، فان هدف الدبلوماسية هو النضال من أجل حسن النية. وقد لا يكون من الممكن إقناع حكومة ما ضد سياستها المقررة، وضد الأتباع المتعمد لمصالح محددة والتى قد تتصارع مع مصالح بلد. ولكن علينا أيضا أن ندرك أنه ليس هناك بلد ما متماسك بشكل صلب فى مؤسساته ومنظماته، وليس هناك حكومة لا تدع مجالا للجماعات التى قد تعتقد بشكل حقيقى فى خطأ سياستها أو قد لا تقف موقف المؤيد لهؤلاء فى السلطة، وهكذا فإن خلق الدبلوماسى لحسن النية تجاه بلده أمر ممكن. إن اللورد TEMPLE WOOD ، والذى يعرف بشكل أفضل باسم سير صامويل هور SAMUEL HOARE يحكى فى مذكراته المتعلقة بالفترة التى كان فيها سفيرا لبريطانيا فى أسبانيا فرانكو خلال الحرب ما يقدم صورة مثيرة بالاهتمام حول نشاطاته فى بناء حسن النية نحو بريطانيا بين مجموعات لم تكن لا معادية ولا تؤيد بنشاط نظام فرانكو. ومن الأمور التى يجب أن نذكرها أن السير هور قد عين سفيرا فى وقت كانت أسبانيا تبدو فيه مرتبطة بشكل حازم بقضية ألمانيا الهتلرية. وقد وجد السفير نفسه مقاطعا ومعرض للعديد من الإهانات، وكانت مكانة المانيا فى أسبانيا فى قمتها، ومع هذا، ببطء وبحرص استطاع بناء رأى عام صديق حتى بين أنصار الفلانجز.

إن ثمة حالات عديدة فى التاريخ بددت فيها الدبلوماسية الرديئة حسن نية قائمة وتقليدية. ونتيجة للفشل فى استغلال الفرص التى طرحت نفسها، فان العلاقات غير الجيدة بين دول قد ساءت. لذلك كله، فإنه، وبشكل أساسى، وكما هو سائد فى كل العلاقات البشرية، فإن الوظيفة الأولى للدبلوماسى هى العمل على تدعيم صورة واسم بلده فى الدولة المعتمد لديها، واكتساب الاحترام لها، وخلق حسن النية تجاهها.

غير أنه مع افتراض أن أهداف الدبلوماسية قد تحددت بشكل جيد، والجهاز الذى سيتولي متابعتها قد أقيم على أساس متين، فإن النتائج المرغوبة سوف تعتمد بقدر كبير على الوسائل والمناهج المستخدمة. وكما أشرنا من قبل فإن حسن النية تجاه بلد الدبلوماسى يمكن فقط أن تخلق بجعل سياستها تفهم بشكل أفضل، وباكتساب الاحترام لها، وبالاعتراف بالمصالح المشروعة للشعوب الأخرى، وفوق كل شيء بالتعامل الأمين، لأنه فى الدبلوماسية كما هو الحال فى العلاقات الإنسانية الأخرى، فإن المرء يستطيع أن يكسب احتراما حقيقيا فقط من خلال التعامل الأمين والعادل. فالدبلوماسية من خلال المخادعة نادرا ما تساعد بلد ماعلى تحقيق أهدافها. ولهذا فإن أساليب الدبلوماسية تصبح أمرا هاما.

وباعتبار أن هدف الدبلوماسية هو حماية المصالح الحيوية لبلد الدبلوماسى، فإن عليه دائما أن يتذكر أن الشخص الذى يتعامل معه لديه تماما نفس الهدف فيما يتعلق ببلده. وهكذا فإن عليه أن يتعامل مع أشخاص مدربين ذوو خبرة وعلى وعى كامل بعناصر القوة والضعف فى الخصم. ففى مناقشة وزير خارجية البلد (أ) مع وزير خارجية البلد (ب) فهو يتعامل مع شخص من أهدافه حماية وإذا أمكن تدعيم مصالح بلده، والذى يبغى أن يقدم القليل وأن يحصل أكثر ما يستطيع بقدر الإمكان.

وهكذا فالأمر دائما هو التوفيق بين المصالح ، وبالحصول على شيء ما مقابل التنازل عن شيء ما، وبإقامة توازن أو التوصل إلى حل وسط. ووفقا لقاعدة الحلول الوسط : لا شيء مقابل لا شيء NOTHING FOR NOTHING ، فإن شيئا يجب أن يعطى إذا كان شيئا يجب أن يؤخذ. وما يعطى قد يكون وعدا بتأييد فى المستقبل، أو تعديل خط ما فى السياسة، أو اهتمام صديق فى مجال آخر، ولكن على المرء أن يتأكد أن بلد ما لن يتنازل عن درهم واحد من مصالحه ما لم يحصل على شيء فى المقابل فالدبلوماسية هى موضوع أخذ وعطاء.

وقد يكون من غير الضرورى مناقشة أخلاقيات الأخذ والعطاء ولكن المثل القديم بأن الأمانة هى أفضل سياسة، تمثل دبلوماسية جيدة. ومن الحقائق التى لا تنكر أن الدبلوماسى إذا فقد سمعته فى النية الطيبة والتعامل النزيه إنما يصبح عائقا لمصالح بلده التى يفترض أنه يدعمها. وبأساليب المخادعة كسبت بعض القوى الكبرى مزايا غير عادلة من أمم ضعيفة. وثمة حالة سيئة السمعة حين ضمنت قوة عظمى معاهدة مع الصين، وبغير علم المفاوضين

الصينيين، مادة تنص على حقوق خاصة ما. ولعدة أعوام حصلت على فائدة من ذلك، ولكن الصينيين لم ينسوا ولم يغفروا الخدعة التى مورست معهم، ونشأ عنها بعضا من سوء النية بين الغرب والصين. ولا شك أن الدبلوماسيين عليهم دائما أن يضعوا أفضل وجه على مواقف غير سارة وأن يجدوا حججا مقبولة وأعذارا لتبرير بعض مظاهر السياسة أو حادثة تؤثر فى بلد ما بشكل مناوىء. وليس ثمة خطر فى هذا، وقد يفسر هذا وصف ورتون WORTON المشاغب للسفير بأنه رجل أمين أرسل للخارج لكى يكذب من أجل بلده. والواقع أن هذا الجانب من نشاط السفير، وهو تبرير مواقف بلده، وأعطاء أفضل تفسير للأحداث وكذلك تقديم بلده فى أكثر مظاهرها جاذبية، هو أمر مقبول بشكل عام كشىء طبيعى إذا ما تم فى حدوده المعقولة.

إن وسائل ومناهج الدبلوماسية يمكن تحديدها فى أربع وسائل رئيسية وتقليدية وبشكل يصعب تغيرها. المنهج الأول والطبيعى للدبلوماسية هو الاتجاه العام للصداقة والإقناع FRIENDLINESS AND PERSUATION ، والذى يعتمد على الجدل المهذب، والأسلوب القائم على العقل والمصلحة. أما النهج الثانى فهو الذى يتخلص فى المنحة GIFT ، ويتضمن هذا اتفاقيات قد تنطوى على خسارة، والحد من المصلحة، وباختصار شىء مفيد للطرف الآخر فى مقابل كسب أهدافه. ومثلما أشرنا من قبل فإن لا شىء مقابل لا شىء ، وهى قاعدة الدبلوماسية ولكسب هدف هام فإن على المرء أن يكون مستعدا للدفع، وأن يتنازل فى شىء وهذا هو طريق الحل الوسط، فإذا لم تنجح كلا الوسيلتين السابقتين: الأقناع، والحل الوسط، هنا يمكن التوصية بقطع العلاقات RUP-TURE وهنا تصبح الدبلوماسية عنيفة، وحيث يحاول كل طرف أن يخطىء الآخر فى أعين العالم. وأخيرا يأتى استخدام القوة، وحيث تصبح الحرب هى الملجأ الأخير. والدبلوماسية الطبيعية تتضمن مزيجا حكيما من الوسائل الثلاثة الأولى مع الإدراك الكامل أن الوسيلة الأخيرة وهى الحرب تبدو قريبة رغم أن الظروف قد لا تشجع على استخدامها، أو أن عدم التأكيد من نتائجها يمكن أن يمنع اللجوء إليها.

غير أن أسلوب القوة لا يعنى بالضرورة مساواته بالحرب. فثمة طرقا أخرى للضغط والذى يمكن أن يكون فعاله فى حالات معينة. وفى الفترة ما بين الحربين، فإن كلمة عقوبات SANCTIONS كانت شائعة الاستخدام. فقد استخدمت العقوبات لرد دولة مخطئة إلى صوابها. وأكثر الأمثلة شهرة فى هذه الفترة كانت حين حاولت عصبة الأمم

الضغط على موسولينى بهذه الطريقة. وحقيقة أن العقوبات التى استخدمت عندئذ كانت أساسا اقتصادية لا يجب أن تغمض أعيننا أن وسائل أخرى لا تصل إلى مرتبةالحرب مثل الحصار BLOCKADE ، والمقاطعة BOYCOTT ، ورفض حق المرور، يمكن أيضـا أن تستخدم بفاعلية لممارسة ضغط على الدول.

أما الحرب فهى الفصل الآخر للدبلوماسية. فحين تستنفذ كل الوسائل والمناهج الأخرى، تحاول الأمم أن تكسب أهدافها عن طريق الحرب. وأساسا فهى محاولة لأن تكسب بالحرب ما عجزت الدبلوماسية عن تحقيقه بالعمل السلمى. غير أنه من الخطأ الظن بأن الدبلوماسية تنتهى حين تبدأ الحرب، أو أنها سوف تبقى مكتوفة الأيدى تنتظر نتيجة الصراع. وطبيعى أن كل جهد سوف يبذل من خلال الوسائل الدبلوماسية لإضعاف مقاومة العدو وتحقيق هزيمته فى الحرب وإن أمكن تقصير أمد الحرب بجعله يقبل الهزيمة.

وفى مناقشة وسائل الدبلوماسية فقد يكون مفيدا إذا ما ألحنا، وما سوف يتكرر فى مواضع أخرى، إلى المآزق والشراك التى تقع فى طريق الدبلوماسى والذى يتعلم تفاديها بالخبرة. إن أكبر عائق للدبلوماسى هو الحماس الزائد OVERZEALOUSNESS.إن التناول الهادىء والحكيم للمشكلات لا يتأتى تلقائيا بل يجب أن يغرس وينمى. غير أن مواقف جديدة، ووجهات نظر جديدة وفرص جديدة تثير حماس الرجال وتجعلهم غيورين على إنجاز الأشياء وتحقيق الاسم والشهرة والرغبة فى حل مشكلات وجد آخرون صعوبة فى حلها غالبا ما تؤدى برجال لا معين إلى هذا الخطأ. ومما لاشك فيه أن جميعنا لدينا أفكار حول حل مشكلات وقضايا كبرى بين الأمم، ولكن إذا طورنا ونحن فى هذا الحماس صيغا لتسوية هذه المشكلات دون أن نتذكر واقع القوة وراءها، فإننا فى الواقع نعرض وزارات خارجيتنا للمشكلات. إن نقطة الضعف في الناس المتحمسين هي تغاضيهم عن عامل القوة وخفض المشكلات إلى افتراضات أولية ومبسطة. ومن هنا كان تحذير تاليران TALEYRAND أن الدبلوماسى يجب أن يتفادى الحماس الزائد. والثغرة الثانية تنشأ من الطابع المصطنع للحياة الاجتماعية التى تحيط بالدبلوماسى. ورغم أن الدبلوماسى يعمل فى بلد معين فهو يتحرك وله وجوده فى مجتمع رفيع المستوى من زملائه والذى يعرف بالدوائر الدبلوماسية، Diplomtic circles. وهذا مجتمع صغير له قواعده الخاصة للسلوك، ومجاملاته وأكثر من ذلك تحيزاته ودائرته المغلقة. وفى كل عاصمة هناك مثل هذه المستعمرة الصغيرة، والتي بظروف وجودها، فإنها تبني أساسا علي مصادرها الخاصة.

وطبيعى، شأن كل المجتمعات الصغيرة فإن لها مشاجراتها الخاصة وخلافاتها وحسدها ومنافساتها بل ونصائحها والتى عاده لا تصل إلى علم الجمهور. ومن الأمور التى لا يمكن تجنبها أن كل دبلوماسى يتأثر بشكل ما بالمناخ والمزاج السائد فى المجتمع الذي يتحرك فيه، وإنه بهذا التأثر يمكن دون أن يقصد الإضرار بمصالح بلده. ويحدث هذا كثيراً بأكثر مما نتصور. وتتلون آراء الدبلوماسيين بمناخ المجتمع الدبلوماسى وتتطلب رجلا يمتلك استقلالا استثنائيا فى الفكر لكى يحافظ على موضوعية ملاحظاته وأحكامه.

وبالطبع ما زال قائما فى بعض العواصم الفكرة القديمة عن الهيئة الدبلوماسية DIP-LOMATIC CORPS . ولكن الهيئة الدبلوماسية بهذا الشكل ، يمكن فقط أن تتناول الأمور التى لها تأثير على الامتيازات والحقوق والمجاملات المستحقة للدبلوماسيين، ولكن دون أن يسبب هذا مشكلات سياسية.

وثمة مأزق آخر على كل دبلوماسى أن يتجنبه مثل ما يتجنب الخطيئة وهو الشعور بأنه يمثل القيم الأخلاقية الصحيحة SLEF - RIGHTEOU NESS، فالسفير لا يوفد إلى بلد آخر لكى يصحح الأمور فيها أو تنمية القيم الأخلاقية أو السلوك العام الصحيح. إن واجبه فقط هو حماية مصالح بلده. وإذا ما تعود الحكم على الأشخاص والمؤسسات أو حتى الأحداث وفقا لما يظن أنه مستويات بلده أو وفقا لبعض المبادىء الأخلاقية العامة، فإنه حتما سوف يصبح ناقدا معاديا وسوف يضعف قدرته على تنمية مصالح بلده. إن التسامح فضيلة يجب أن تذكى بشدة فى ممارسة الدبلوماسية.

وفى المحصلة الأخيرة، فإنه ليس هناك شيئا سريا أو غريبا حول الدبلوماسية أو الدبلوماسى، إنها العمل الرسمى لإدارة العلاقات بين الدول وهو محكوم بنفس القواعد لرجال أمناء يقبلون لإدارة العلاقات بينهم بالتعامل النزيه FAIR DEALING ، والاستقامة STRAIGHT FOR WARODNESS ، والاستعداد للتوصل إلى حلول وسط والالتقاء مع وجهة نظر الآخر دون التسليم فى الأمور الجوهرية. إنه فقط بغرس وتنمية حسن النية تستطيع الدبلوماسية أن تنتج آثارا فعالة.

وفى الحكم على نجاح أو فشل دبلوماسية بلد ما، فإن السؤال الرئيسى الذى تسأله هو ما إذا كانت مصالح البلد قد خسرت أو كسبت: وعما إذا كان أمنها قد ضعف، وعما إذا كانت تحظى بحسن نية حلفائها واحترام هؤلاء الذين لا يحملون صداقة لها. إنه لهذه

الأهداف تتوجه دبلوماسية البلد وإذا ما تحققت فإن غياب نتائج مثيرة لهو أمر لا يجب أن يكون مصدر قلق. والواقع فإنه ليس هناك شيئا يثير الشك في أعين الدبلوماسى من النتائج المثيرة. ولهذا نجد أن رجل دولة عظيم ينصح الدبلوماسيين بهذه الكلمات: فى الدبلوماسية، «فإن المرء لا يجب أن ينجح إلى درجة كبيرة.»

وفى نهاية الأمر، وإذا كنا نتحدث عن أهداف الدبلوماسية، وأهمية الوسائل والمناهج التى تستخدمها لتحقيق هذه الأهداف، فإنه سوف تخلق الافتقار إلى الثقة عند الدول الأخرى.

من الضرورى أن نؤكد أن فعالية أية دبلوماسية فى تحقيق أهدافها إنما يعتمد إلى حد كبير جدا على قوتها الداخلية، فإذا كانت الدولة فى حالة مزمنة من الحرب الأهلية، أو من الإفلاس المالى، فإن دبلوماسيتها رغم كفاءة أساليبها ، وقدرة دبلوماسييها لا يمكن أن تكون فعالة. فالتغير المستمر للحكومات، وتحولات السياسة والضعف الداخلى الذى يقود لعدم اليقين فى عمل الدولة، حتى ولو كانت فى مصاف الدول الكبرى ،يجعل لدبلوماسيتها أى ثقل. فوعود سفرائها سوف تقبل فقط بتحفظ، وسوف ينظر إلى مساعيها بحذر، وعروضها للتحالف أو التأييد بدون حماس، ولن يكون لما تعرب عنه من عدم ارتياح أو احتجاجات أى وزن. إن السياسة الخارجية يجب أن تعكس قوة واستقرار الدولة.

الفصل الثاني

طبيعة الدبلوماسية وبدائلها

اعتمدنا فى هذا الفصل على: – "Diplomacy,The Dialogue between nations".

Adam Watson

تلتزم الدول بالدبلوماسية نتيجة لطبيعة العالم الذى تعيش فيه. وفى أزمنة وأماكن حيث هناك عديد من الدول المستقلة تؤثر أعمال كل منها فى الأخرى، فإنها لا تستطيع أن تعمل فى فراغ أو عزلة، وحيث يفكر كل مجتمع فقط فى كيف يدير شئونه الداخلية، إن كل دولة ملزمة، بذات الرغبة فى التحكم فى مصيرها بقدر الإمكان، أن تعمل حساب جيرانها الذين يعتدون على مصالحها ومصالح مواطنيها أيا كان تقديرها لأهمية هذه المصالح. وبعبارة رسمية أكثر، فإن أعضاء مجموعة من الدول المستقلة ملزمون بأن يتدبروا نتائج حقيقة أنهم لا يتمتعون باستقلالهم بشكل مطلق أو فى عزلة وإنما فى إطار من الاستقلال المتبادل. وحين تكون مجموعة من الدول نظاما يرتبط برباط وثيق، فإن وجود عدد من الإرادات السياسية القوية يفرض على كل دولة وعيا مستمرا بأن الآخرين لهم مصالح وأهداف متميزة عن مصالحها وأهدافها، وأن ما تفعله دول أخرى أو ما يمكن أن تفعله إنما يحدد ويقرر جزئيا سياستهاالخاصة.

وقد عبر جان جاك روسو عن هذا بدقة فى القرن الثامن عشر حين كان نظام الدول الذى يعرفه من الشئون الأوروبية. إن «الجسد السياسى» كما كان يسمى الدولة «ملزم بأن ينظر خارج ذاته لكى يعرف نفسه، إنه يعتمد على بيئته بأسرها وعليه أن يهتم بكل شيء يحدث فيها» واليوم أيضا فإن كل دولة فى نظامنا العالمى تعتمد ليس فقط على نفسها وإنما على كل بيئتها العالمية.

والدول التى تعى أن سياساتها الداخلية تتأثر «بكل شيء يحدث فى الخارج»، لا تقنع بمجرد أن ترقب إحداهما الأخرى عن بعد إنهم يشعرون بالحاجة إلى الدخول فى حوار مع بعضهم البعض. هذا الحوار بين دولة مستقلة ـ والجهاز الذى تديره به الحكومات، وشبكة الوعود، والصلات، والمؤسسات، وقواعد السلوك التى تتطور عنها، إنما يمثل جوهر الدبلوماسية.

وهكذا فإن الشرط الضرورى للدبلوماسية هو التعدد، وهو ينبع من تعايش عدد من دول مستقلة فى عالم يقوم على الاعتماد المتبادل. ومثل ترتيبات المنزل، فإن الدبلوماسية هى استجابة للإدراك من جانب صناع القرار بأن أداء كل منهم هو من الأمور ذات النتيجة الدائمة لبعض أو كل الآخرين.

وبداءة فإن الدبلوماسية تبدو كاتصال متقطع بين دول منفصلة جدا مثل مملكة الفراعنة فى مصر القديمة ومملكة الحيثيين، الذين وجدوا أنفسهم على صلة بعضهم بالبعض من خلال التجارة التى كان يديرها تجارهم ومن خلال المنازعات حول مناطق الحدود ـ بشكل رسمى أكثر، فإن هدف الدبلوماسية كان فى البداية، وما زال، هو التوفيق بين تأكيد الإرادة السياسية لكيانات مستقلة وبين ما أسماه أدموند بيرك «إمبراطورية الظروف» حولهم. ويجب أن نلاحظ فى البداية أن جانبا كبيرا من إمبراطورية الظروف هذه كان عسكريا والجانب الآخر كان اقتصاديا.

وقد ادعى عدد من المفكرين حول طبيعة الدول أن هذه القدرة فى التعامل مع العالم الخارجى هى جانب جوهرى لهذه الطبيعة، وأن ما يكون الدولة ليس مجرد الجهاز الذى ينظم الحياة الداخلية لجماعة ما. وهم يعتقدون أنه إذا لم يكن لدى جماعة ما السلطة الجماعية والتى هى فى موقع يمكنها من أن تقرر لنفسها مدى وقوة معاملاتها مع دول أخرى فإنها إذن تفتقر بمعنى حاسم لنفس السلطات التى تعطى أساسا لادعائهم بأنها دولة ذات سيادة. كما يرى بعض المفكرين القدرة على التعامل مع دول أخرى، ومن ثم على إجراء حوار دبلوماسى مع دول أخرى العلامة المميزة للدولة، فإن أهمية الصلات الخارجية تختلف فى التطبيق من دولة لأخرى. وفى بعض الأوقات فإن مصالح عدد من الدول تتداخل بشكل وثيق، ونشاطات وحقيقة وجود كل دولة تتقرر إلى حد كبير بما يفعله جيرانها، وأن ثمة أولوية للسياسة الخارجية فى كل قرارات هذه الدول. هذا المفهوم الذى ينسب إلى المؤرخ الألمانى Ranke ، يشير ليس فقط إلى العلاقات السياسية والاستراتيجية بالمعنى الضيق، وإنما لكل نطاق الصلات الخارجية من الصراع المسلح إلى السلع والأفكار التى تستوردها الدول ذات الجماعات المتداخلة عادة من بعضها البعض.

وحيث ترتبط مجموعة من الدول بعضها ببعض بدون أن تفقد استقلالها فإن ما تفعله دولة إنما يؤثر بشكل مباشر وغير مباشر على الآخرين، وهو ما يجعل من المفيد أن نتحدث عن نظام للدول بالمعنى الذى نتحدث به عن النظام الشمسى مثلا وقد ظل هذا المصطلح فى الاستخدام العام منذ أن قدمه Pufendarf ، الدبلوماسى المحترف فى القرن ١٧ الذى عمل لعدة بلدان ونشر De systematibus Ciutatun حين كان يخدم ملك السويد. أن هناك مجالا لمناقشة ما إذا كان هناك عدد من نظم الدول فى الماضى، أو ما إذا كان نظام الدول الكامل الوحيد المتطور، والذى يشعر بنفسه على هذه الصورة، وهو النظام العالمى المعاصر.

وزيادة على ذلك، وحيثما كان هناك ميراث حضارى مشترك، أو قيم مشتركة، وحيثما ترتبط الجماعات التى تكون الدول فى نظام ذى تبادلات نشطة للسلع والأفكار بحيث يصبح هناك درجة عالية من الاعتماد المتبادل، وكما ذكر الأستاذ Hedly Bull مرتبطة بمجموعة مشتركة من القواعد فى علاقات إحداها بالأخرى، وتشترك فى عمل مؤسسات عاملة مشتركة، فى مثل هذه الحالات فإنه من الممكن أن نذهب أبعد وأن ننظر إلى النظام كمجتمع دولى واحد، ورغم أن دولة الأعضاء مستقلة سياسيا، فإنها ليست كيانات منفصلة بشكل مطلق وإنما أجزاء من كل. فى مثل هذه الحالات فإن كل دولة مستقلة ذات سيادة لم تحقق حضارتها ومستواها فى العيش، وحاجات وأمانى شعبها، فى عزلة، وإنما كانت قادرة على أن تحقق هذا فقط من خلال مجتمع أوسع. وكما عبر الأستاذ Charles Teylor فإن الأمر يتطلب «تطور طويل لبعض المؤسسات والممارسات، ولحكم القانون وقواعد الاحترام المتكافىء، ولعادات المداولات المشتركة، والرابطة المشتركة» ويستطيع المرء أن يضيف من الإخصاب الثقافى المتبادل، وتوازن القوى والمصالح، لكى تنشأ الدولة الحديثة فى مجتمع دولى. إن المحافظة على هذا المجتمع ككل وعمله الفعال هو لذلك مصلحةحقيقية للدولة التى تكون أجزاءها، والتى توزن مع مصالحهم الخاصة والفردية وأمانيهم بنفس الطريقة العامة التى يجد فيها الأفراد فى مجتمع متمدين مصلحة فى عمل الجماعة ككل، وقد تعودنا أن ننظر إلى البشر على أن لهم ليس مجرد مصالح وإنما بعض المسئوليات الأخلاقية تجاه الجماعة التى يعيشون فيها،وبعض مسؤلياتهم تتشكل كالتزامات قانونية، غير أن المسئوليات الرشيدة والخلقية للدول تجاه المجتمع الدولى ليست واضحة المعالم بشكل كبير.

وتاريخيا، فإن حوارا دبلوماسيا فعالا متعدد الأطراف داخل نظام الأمم قد يكون مطلوبا أكثر من التعايش عن طريق الصدفة لعدد من الدول المستقلة ذات مصالح متشابكة. وفى الماضى، فإن حوارات متصلة تطورت وازدهرت بين مجموعات من الدول فى منطقة جغرافية محددة وذات تاريخ من الصلات الوثيقة. مثل هذه المجموعات من الدول كونت ما يمكن أن يوصف بمجال مغناطيسى واحد من القوى السياسية. وقد تحددت هويتهم بعضويتهم أوصلتهم الوثيقة لمدنية مشتركة. وقد أدير حوارهم الدبلوماسى ، وتم التوسط حول مصالحهم وفقا لمفاهيم القانون، والشرف ، والأخلاق والفطنة التى سادت فى هذه المدنية. وحتى الحرب بينهم لم تكن عنفا بلا تمييز. فقد نظمتها قواعد النظام. وفى الحرب، اعترفت هذه الدول ليس فقط «بقوانين الحرب» التى نظمت حق الدولة فى اللجوء إلى القوة وكيف يمكن شل

الحرب، ولكن أبعد من هذا بقواعد معينة من السلوك تجاه الأعداء والمحايدين، وحقوق الدول الأعضاء الأخرى بما فيهم الأعداء فى درجة ما من الاستقلال. فإذا ما توسعت هذه المجموعات من الدول خارج منطقتهم الجغرافية الأصلية، فإنهم حتما كانوا يحملون معهم افتراضاتهم، وقوانينهم وقواعدهم فى السلوك.

فمثلا فى المجتمع الأوروبى للدول، برزت الدبلوماسية كمؤسسة تنظيمية، تحمل سماتها المتميزة وطرقها وشبكتها الخاصة من الإجراءات والقواعد،والمعاهدات والالتزامات الأخرى. وقد استطاع النظام الأوروبى بهذا التنظيم أن يمارس نفوذا وضبط النفس على تأكيد أعضائها لذواتهم وأنهم كانوامربوطين من البداية بأكثر من الترتيبات السياسية. فقد كان لدى دول أوروبا بشكل مشترك التقاليد القوية للمسيحية اللاتينية للعصور الوسطى، كما أن العناصر الموروثة من الوحدة لم تخضع كلية للحركات الجديدة من التجزئة والتنوع. كما طورت نظم دول أخرى مثل روما أو الصين بدون أن تتوسع لكى تشمل دولا مشابهة ظلت خارج مدنيتها. وكانت غرب أوروبا استثناء من ذلك، ومن المعترف به بشكل عام أن الأساليب المصقولة، والإدراك العالى لكيفية عمل نظام الدول، والذى تطلبه الدبلوماسية الأوروبية من دولها الأعضاء المستقلة، قد ساهمت بالشكل غير القليل فى هذه الظاهرة الجديرة بالملاحظة، وعلى عكس خبرة نظم الدول الأخرى والتى لم تبرهن أى دولة واحدة على أنها بهذا القدر من القوة بحيث تستطيع لأى فترة من الزمن أن تستوعب أو حتى تسيطر على الآخرين. فإذا لم يكن هناك دائما توازن حازم متعدد للقوة بين دول أوروبا لمعظم الفترة ما بين عام ١٥٠٠ حين بدأ النظام يعمل وبين منتصف القرن الحالى حين أصبح فعالا على نطاق عالمى، فقد كان ثمة توازن محافظ عليه بشكل واع بين القوى الكبرى وكافيا لمنع تدعيم السلطة فى أيدى سلطة مسيطرة واحدة. هذه هى الظروف التى تكون فيها الدبلوماسية ضرورة بشكل أكثر والتى تزدهر فيها بشكل أفضل، ولذلك فإن الدبلوماسية الأوروبية تستطيع أن تتطور إلى النقطة التى يمكن أن تتسع لكى تنشىء نظاما عالميا.

وفى هذا القرن فقط أصبحت نظم الدول للمرة الأولى عالمية حقا، شاملة لمدنيات متنوعة وعقائد، فما هى نتائج هذا التوسع للقواعد والممارسات للدبلوماسية؟ إن الدبلوماسية الأوروبية التى ورثها نظامنا العالمى تطورت كحوار بين أعضاء نظام له ـ كما كان الحال فى الماضى ـ هوية ثقافية وتاريخية قوية بما فيه الكفاية لضمان أن أعضاءها يعترفون بقواعد ما.ومن الضرورى أن ننظر إلى الأصول التاريخية والسياق التاريخى لأى ممارسة دبلوماسية

معينة لكى نفهمها. ولذلك فإنه يجب أن يكون فى أذهاننا الأصول الأوروبية لدبلوماسية اليوم إذا ماشئنا أن نرى فى أى موضع أصبحت غير ملائمة وكيف يمكن ملاءمتها بنجاح أوتحولها بالكامل فى بعض الوجوه لكى تلبى متطلبات توسعها العالمى وتغيرها الجذرى. ذلك أنه رغم الحديث المتفائل حول المجتمع الدولى العالمى، والافتراضات المشتركة وقواعد السلوك التى تنبع من ميراث حضارى أوروبى مشترك، فإنها قليلا ما تلقى اعترافا خارج الغرب. هذا التحدى الرئيسى الذى يواجه حوارا فعالا ومشكلات أخرى للتكيف المطلوب لتمكين الممارسة الدبلوماسية الحديثة من أن تتعامل مع ظروف غير مسبوقة وسريعة التغير، تشكل جانبا هاما من هذا الكتاب.

إنه لأمر واضح أن ثمة مزايا فى الحوار الدبلوماسى. هل هو ضرورى بالنسبة لكل الدول؟ فإن لم يكن كذلك، ففى أى ظرف تستطيع بعض الدول أو على الأقل طوائف خاصة من الدول أن تستغنى عن الدبلوماسية؟ إنه من الصعب أن تجد أمثلة لدولة مهمة ذات نظام تحاول أن تتصرف بدون حوار دبلوماسى منتظم. ومع هذا فإنه من الصحيح تاريخيا أنه كان هناك دول قوية وضعيفة ظلت معزولة أو تنأى بنفسها عن اضطراب العلاقات الدولية لفترات طويلة من الزمن. وقد كانت هذه الدول على الهامش الجغرافى والسياسى لنظم دول متكاملة، أو خارجها بالكامل. فالدول البعيدة التى يفصلها عوائق طبيعية مثل المحيط والصحراء عن نظام نشط للدول تستطيع أن تكون أعضاء هامشيين فى هذا النظام وتحتفظ بعلاقات متقطعة أو مختارة مع الدول الأوثق اندماجا فى النظام. لقد حذر جورج واشنطون بنى وطنه من التحالفات المعقدة وهو ما كان يعنى به هذه الدرجة من الانعكاس فى نظام الدول الأوروبى والذى جعل التحالفات ضرورية، ومنذ هذا الوقت أصبحت الولايات المتحدة متورطة بشكل متزايد وأصبحت العزلة فكرة مثالية أقل قابلية للتحقيق. وثمة دول صغيرة بدرجة لا تمثل وزنا فى الحوار الدبلوماسى يمكن بمصادفة تاريخية أن تستبعد من هذا الحوار. وتقف آندورا، ليشتنستين وسيكيم أمثلة على ذلك.

على أية حال، فما كان ممكنا فى بعض الفترات بالنسبة للولايات المتحدة أو تايبيه أو آندورا ليس اختيارا مفتوحا بوجه عام. وأكثر الحالات جذبا للنظر هى الصين. فلعدة قرون لم تحتفظ الإمبراطورية الصينية، والتى كانت مدنية ذات بناء إقطاعى أكثر منها دولة، بحوار منتظم مع دول أخرى: فقد كانت ثمة عزلة قائمة وراء حائط وأقوام من الرجال من آسيا الوسطى قادرين من وقت لآخر على أن يفوزوا بالسيطرة على قمةالحكومة الإمبراطورية وما أن

تأسست «المملكة المركزية» حتى نسيت التقاليد الوطنية للدبلوماسية التى تطورت إلى درجة عالية فى زمن كو نفوشيوس، لأن الامبراطورية الموحدة التى حلت محل نظام «الدول الصينية» كانت قوية بما فيه الكفاية لكى تقود جيرانها المباشرين وتظل غير مبالية بأمور بعيدة عنها. وقد وافقت الصين للمرة الأولى على إجراء حوار دبلوماسى منتظم، وتبادل المبعوثين مع الدول الغربية فى منتصف القرن التاسع عشر، حين تضاءلت أقدار الأسرة الحاكمة الأخيرة وحين لم يعد من الممكن تجاهل نفوذ الغرب. وقد أجبرت الصين على أن يكون لها معاملات مع دول أخرى حين تمكنت الدول الأوربية، بتفوقها العسكرى وتكنولوچيتها البحرية وبتصميمها على الاتجار معها بشروطها الخاصة، تمكنت من أن تزج بالصين بشكل متقدم فى السياسات الدولية: ذلك عندما وجدت الصين نفسها فى مواجهة دول مستقلة لا يمكن قهرها. وكانت نتائج هذا بالنسبة للصين عميقة وغير سعيدة بشكل غير عادى.

ولكى ندرك الإطار المتطور للدبلوماسية الحديثة، فإنه من المهم بشكل متساو أن نلاحظ التأثير الذى يحدثه على نظام الدول دخول دول بعيدة أكثر فى الشبكة القاسية التى لا مهرب منها للشئون الدولية والتى تشكل النظام. وحيث كان الأمر يتعلق بإدخال دول فردية فى نظام قائم بالفعل، فإن قبول الحوار الدبلوماسى يحمل معه الحاجة لتكيفات هامة من جانب الدولة التى دخلت حديثا هذا النظام. فمثلا ، فإنه فى أوروبا، حيث تجد الدبلوماسية فى أشكالها الحديثة المعترف بها أصولها، فإن أحد الشروط الأساسية لتطوير صلات دائمة بين الأطراف المستقلة، كان بالتحديد هو المساواة المعنوية والقانونية التقريبية بين دول النظام بكبيرها وصغيرها. هذا الشرط للحوار الأوروبى بدا غريبا إلى حد كبير للإمبراطورية الصينية. ولأسباب مختلفة إلى حد ما فإن الخلافة الإسلامية العثمانية ولفترة طويلة، والحكومة الثورية السوفيتية فترة أقل بكثير، كانوا أيضاً مترددين فى أن يتنازلوا عن المساواة لدول أخرى. ولكن هذه القوى الكبرى الثلاث وافقت على أن تتطابق مع القواعد الظاهرية ومعاهدات الدبلوماسية الأوربية لأنه باعتداء القوى الأوروبية بشكل أكثر إصرارا على مصالحها وأهدافها، فإن القوى الثلاث وجدت الحوار الدبلوماسى مع هذه القوى أمرا لا غنى عنه. إلى أى مدى بقيت هذه الدول الثلاث مخالفة للافتراضات الثقافية والتاريخية التى ولدت قواعد ومواثيق الدبلوماسية الأوروبية ؟ هذا سؤال آخر.

ويختلف الوضع حين يدخل عدد كبير من الدول الخارجية فى النظام فى وقت قصير، وبحيث يمتد النظام نفسه فى المواقع إلى أبعد من مهده الثقافى فعمليات التكيف لا تتم من

جانب واحد، وعلى الأعضاء الأصليين أن يقدموا تنازلات للقادمين الجدد. واليوم يطور النظام العالمى بشكل تدريجى قواعد جديدة واتفاقيات لكى تحل محل تلك القواعد والاتفاقيات السابقة ذات الأصول الأوروبية الخالصة.

ولأن الدول تتحدث إلى بعضها البعض بشكل خاص وسرى، وهذا المظهر لحوارهم يثير بطبيعة الحال حب الاستطلاع، فإن الدبلوماسية ينظر إليها فى بعض الأحيان على أنها ثنائية فى جوهرها. غير أن الروابط التى تربط الدول فى نظم هى بالتحديد جماعية. ونتيجة لذلك. فإن الحسابات التى تشكل سياسة كل دولة عضو تجاه الآخرين هى حسابات جماعية، كما أن الحوار بينهم أصبح أيضا جماعيا بشكل أكثر مع تطور النظام، والاتفاقيات الأكثر بدائية هى فقط التى كانت ثنائية بشكل خالص. فالروابط والتحالفات، وكل المناسبات التى يجتمع فيها ممثلون عن ثلاث قوى أو أكثر، هى أمثلة على الدبلوماسية الجماعية. ولكن هذه الحوارات تتضمن فقط بعض المشتركين فى اللعبة. فالدبلوماسية الشاملة الجماعية أو الدبلوماسية العالمية، أو فلنقل محاولة إدخال جميع أو على الأقل غالبية الأعضاء المهمين لنظام ما فى مفاوضات ترى فى وقت واحد، إنما ترمز على مرحلة أكثر تقدما وهى عادة تبدو فى البداية كمفاوضات من أجل سلام عام بعد حرب ممتدة، وهى تنظم بعد ذلك فى مؤسسات دائمة مثل عصبة الأمم، وهيئة الأمم. وحتى الآن فإن الدبلوماسية الجماعية إنما تكمل الحوار الثنائى. وهى لا تبدى أى علامة على أنها تريد أن تحل محل الصلات الثنائية بين دول ذات سيادة.

وتتعامل الدول المستقلة ثنائيا مع بعضها البعض وتجتمع معا فى منظمات جماعية ليس فقط لأن لهم مصالح مشتركة، ولكن أيضا لأن لهم مصالح متضاربة. وزيادة على ذلك، فإن حقيقة الاستقلال تقوى الظنون والشكوك. وثمة قوة يمكن أن تكون غير مخلصة فيما تقول وتعد، وإذا ما كانت مخلصة فقد تغير رأيها. والتاريخ عامر بأمثلة الصراع وازدواجية ونقض السياسة، وتحمل الأنباء أمثلة جديدة كل يوم. وتعنى الدبلوماسية بشكل وثيق بهذه المشكلات فهى إطار منظم للاتصال والمفاوضة والتى تمكن كل دولة مستقلة من أن تعلم ما الذى تبغيه الحكومات الأخرى،وما الذى تعترض عليه. وفى مجتمع دولى متطور تصبح الدبلوماسية أكثر من أداة للاتصال والمساومة. إنها أيضا تؤثر فيما يمارسونها. وهى نشاط حتى لو أسيىء استخدامه فإن لها تحيزا نحو حل الصراعات. إن من وظيفة الحوار الدبلوماسى أن يخفف الخلافات بين الدول ويجعلها أكثر تمدينا، وأن يصالح بينها إذا أمكن بدون أي كبت أو تجاهل لهذه الخلافات. إن تصارع المصالح هو موضوع رئيسى للدبلوماسية التى تستطيع أن

تعمل بشكل فعال فقط حين يتوفر المستوى الضرورى من التفاهم بين أطراف الحوار حول المحافظة على النظام ككل، وحول قواعد تنمية مصالحهم الفردية داخل النظام. وهكذا، فالحوار الدبلوماسى أداة المجتمع الدولى: فهو عملية متمدينة تقوم على الوعى واحترام وجهات نظر الشعب الآخر، وهو أيضا عملية تساعد على التمدين، لأن التبادل المستمر للأفكار، ومحاولات التوصل إلى حلول مقبولة بشكل متبادل لصراعات المصالح ، إنما تريد من هذا الوعى وهذا الاحترام هذا الاتجاه إلى التمدين. ومن الواضح أنه لا يمنع الدبلوماسية من أن تحرف أو يساء استعمالها، فستظل أساليبها تتسم بالنفاق. ولكن هذا التحيز لفهم وجهات النظر والحاجات الأخرى، وللبحث عن أرض مشتركة وحل للخلافات، هو أمر لا يمكن أن نخطئه فى الدبلوماسية.

بدائل الدبلوماسية

ما هى البدائل للدبلوماسية؟ من أجل أن نستغنى عن الدبلوماسية، أى عن الأساليب التى تستخدمها الحكومات المستقلة لتحقيق علاقاتها مع بعضها البعض، فإن على البشرية إما أن تدع الحكومات المستقلة تعيش بدون حوار دبلوماسى، أو أن تستغنى عن الاستقلال «والدول ذات السيادة» معا.

وفى اعتقادى أن البديل الأول هو شىء خيالى محض. ذلك أنه سيعنى عالما عليه أن يستسلم لوضع من الفوضى والعزلة، من عدم الأمن المزمن والحرب وشيء شبيه لما أسماه هوبز بحالة الطبيعة، وسيكون على الدول أن تعيش بنفسها ومن أجل ذواتها. ولن يكونوا قادرين على عقد تسويات سلام أو معاهدات مع جيرانهم، ذلك أن مثل هذه التسويات هى جوهر الدبلوماسية، وسيكون على كل دولة أن تقف وحيدة أمام جار عدوانى وأكثر قوة، ولن يتمكنوا من أن تتصل إحداهما بالأخرى، أو أن يتجمعوا معا أو يشكلوا عصبا أو تحالفات للحماية المتبادلة. ذلك أن هذه الأنشطة هى أيضا من عمل الدبلوماسية، وإن كان هناك من يجادلون بأن شبكة من التحالفات الدبلوماسية تساعد على نشر الحروب والصراعات كما لن يكون هناك اتفاقيات للحد من الأسلحة التى تتطلب مفاوضة دبلوماسية طويلة لبدئها والاستمرار فيها مع تغير الظروف. وفى غياب حوار أو اتفاق، فسيكون على كل دولة أن تركز على دفاعها الخاص وقد كان هذا ممكنا فى عصر الأسلحة والاتصالات البدائية، ولكن بثمن، وخاصة بالنسبة لهؤلاء الذين يقع إقليمهم بعيدا عن التيار الرئيسى للشئون الدولية.

ولكن فى عصر نووى، فإن مثل هذا الترتيب ـ أو غيابه ـ ليس عمليا على الإطلاق. وبخلاف مشكلة الدفاع، فإن الدولة التى تعيش فى عزلة وبدون صلات دبلوماسية ستجد صعوبة سواء فى تنظيم التجارة أو تبادل الأشخاص والأفكار التى تطور المدنية.

وإجمالا، فإن فكرة دول مسلحة ذات سيادة تعيش فى عالم على مستوى عالمى من التقدم التكنولوچى بدون دبلوماسية هى فكرة غير عملية تماما. لهذا السبب فإن الناس الذين لا يثقون فى الدبلوماسية من الأفضل لهم أن يفكروا فى القضاء على الدول المستقلة.

فماذا عن القضاء على الدول المستقلة؟ هل نستطيع، وهل يجب أن نعمل نحو حكومة عالمية أو اتحاد فيدرالى؟ وهل عالم الدول كما نعرفه مقضى عليه بأن يذوى رغم المظاهر الحالية؟ هنا تبدو الاحتمالات أكثر واقعية. وثمة بدائل قابلة للتطبيق فى المجتمع الدولى كما يقوم الآن، وكما قام فى مراحل مختلفة فى الماضى. مثل هذه البدائل عملت فى مراحل أخرى من التاريخ، وليس من الصعب تصور كيف يمكن أن تعمل مرة أخرى . إن عالما من عدة دول مستقلة ليس هو العالم العملى الوحيد.

وأكثر البدائل وضوحا هو ما يسمى غالبا بالحكومة العالمية. وهذا هو النقيض الكامل لتعدد الدول المستقلة فى نظام من الدول . وبمعنى واسع ، فإن الحكومة العالمية يمكن أن تكون من نوعين. فهى يمكن أن تكون حكومة من مركز واحد، وسلطة حاكمة واحدة، تقوم وتستمر بقوة متفوقة لا يتحداها أحد، أو يمكن أن تكون نظاما يتكون من اتحاد إدارى من كل الدول الهامة فى العالم التى تتنازل عن بعض سلطتها المستقلة لجهاز مركزى يصنع القرار الذى يمثلهم ويحكمهم جميعا. وكلما كان تكوين نظاما يتكون من اتحاد إدارى من كل الدول الهامة فى العالم التى تتنازل عن بعض سلطتها المستقلة لجهاز مركزى يصنع القرار الذى يمثلهم ويحكمهم جميعا. وكلما كان تكوين هذا الاتحاد إداريا كلما كان أكثر احتمالا لأن يكون فيدراليا وبدرجة أكبر من الذاتية للأجزاء المكونة له، وحكومة عالمية تحكم بواسطة سلطة واحدة، ويحافظ عليها وتستمر بالعقوبة القصوى التى تمثلها قوة لا يمكن تحديها، مثل هذه الحكومة عملت بشكل جيد فى أزمنة ماضية. ومن الأمثلة على ذلك، من حدود عالمها، كانت الإمبراطوريات الرومانية والصينية فلم تكن ديموقراطيات، كما لم يكن هناك حق الانفصال. وحكم الإمبراطور من خلال بيرقراطية، تساندها قوة مسلحة التى يمكن أن يتحداها فقط قائد عسكرى منافس. ولم يكن دور الشعوب المحكومة أن تختار حكامها، ولكن

أن تطيعهم، ومع هذا، وفى ظل حكومة حكيمة كان الشعب راضيا. فلم يكن هناك حرية. ولكن كان هناك سلام ونظام، وهى نعم كبيرة فى حد ذاتها، كما أنها فى أكثر الاحتمالات قد تكون الظروف التى تتطور إليها الحريات الفردية. وقد انتهى جيبون إلى أن الإمبراطورية الرومانية تحت الحكم المستنير لآل أنطونيو كانت أسعد الفترات التى عرفتها البشرية. وفى فوضى العصور الوسطى، أثنى دانتى فى كتابه De Monarchia على امبراطورية واحدة لكل العالم المسيحى والتى يمكن أن تضمن نعم السلام وحكم القانون، وهو أمر كان يمكن لمثل هذه الحكومة أن تحققه، ولكنها بالضرورة لم تفعل دائما. فحين كانت الحكومة جائرة فى مثل هذه الإمبراطوريات، كان كل فرد يعانى بشكل يائس.

وحكومة عالمية من هذا النوع هى بالتأكيد أمر يمكن تصوره اليوم. وإذا أخذنا مثلا واحدا، فإنها يمكن أن تأتى من خلال امتداد السلطة السوفيتية فيما وراء الاتحاد السوفيتى والكومنولث الاشتراكى الحالى إلى كل العالم. وسيادة العالمية من هذا النوع لا تتطلب أن تذهب إلى حد بعيد كضم رسمى: فهى قد تترك لرعاياها من الدول ظلا من الاستقلال ودرجة معقولة من الذاتية فى نطاق الحدود التى تضعها السلطة العليا. مثل هذه الحكومة العالمية قد تحقق بركات السلام والنظام على حساب الحرية. ومما هو موضع نقاش أنه حين تستقر الحكومة العالمية، فإن الأفراد قد لا يكونون بالضرورة أقل حرية مما هم الآن فى دول كثيرة قائمة، ذلك أن استقلال دولة ينبئنا عن القليل من حريات رعاياها من الأفراد. وفى عالم تعددت فيه اللغات. والأجناس، والثقافات والعقائد، فإن الجماعات القومية وغيرها تميل إلى تأكيد كيانها السياسى المنفصل إذا ما استطاعت. ورغم أن التاريخ المسجل،والأنباء اليومية مليئة بأمثلة على هذا الاتجاه الفطرى وأشاروا إلى استعداد البشر إلى قبول إمبراطورية عالمية حالما تأسست عن طريق القوة، غير أن هناك دلائل حاسمة على أنه بدون قوة مستمرة تعمل على تماسك أى إمبراطورية فسيقع انفصال فى الحال. ويقدم العالم الشيوعى مثالا واقعيا. فقد اعتقد لينين وشيوعيون آخرون أن الشجار وعدم الاتفاق بين الدول هو نتيجة نظم اجتماعية سابقة، وافترضوا أن الأحزاب الشيوعية فى السلطة سوف تتعاون، غير أن تعدد المراكز فى العالم الشيوعى، والنزاع الصينى السوفيتى قد أظهر عدم واقعية هذا الافتراض. فإذا ما استخدمت السلطة العالمية القوة لمنع مختلف الجماعات الوطنية وغيرها من أن تعيد تأكيد استقلالها، فإن العديد منهم سوف يظل يحاول أن يفعل ذلك . فإذا سمحت السلطة العالمية

بحدوث ذلك، فسوف نعود إلى الخليط المتنافر من الدول المستقلة، وستصبح الدبلوماسية فيما بينهم ضرورية من جديد.

وما يعنيه معظم الناس فى الغرب الذين يريدون حكومة عالمية ليس هو إنشاء حكومة شمولية واحدة على كل العالم تقوم بحكم القوة ، وانما اندماج إرادى للسيادة بواسطة حكومات وشعوب العالم (بشكل أكثر تحديد بوساطة دول النظام العالمى). لتكوين حكومة فيدرالية عالمية، فسوف يكون اتحادا قام واتحد برضاء عالمى، وتاريخى، فإن المجتمعات المستقلة التى اتفقت على «توحيد سيادتها» وتسليم أجزاء جوهرية من عملية اتخاذها للقرار السياسى إلى حكومة مركزية، كان لها ثلاث خصائص. فقد كان بينها بالفعل قدر كبير من الأمور المشتركة. وفى معظم الحالات المعروفة فقد تم اندماجها كأجزاء متفرقة لا تشعر بالراحة نتيجة لتصدع إمبراطورية سابقة واجتمعوا معا لتكوين اتحادا أكثر كمالا. وثالثا، فقد اضطرت هذه الأجزاء أن تفعل ذلك نتيجة ضغط خارجى ولكى تتساند معا حتى لا تسقط وهى متفرقة وقد كانت هذه هى حالة الثلاث عشرة مستعمرة السابقة لأمريكا الشمالية التى كونت الولايات المتحدة... وسوف تكون حالة بلدان غرب أوروبا إذا ما كونت حكومة كونفدرالية واحدة.

فما هى فرص حكومة عالمية من هذا النوع الإرادى فى غياب هذه الخصائص الثلاث؟ إن حقيقة أن شيئا لم يحدث بعد فى الماضى لا يعنى أن هذا لا يمكن حدوثه فى المستقبل. فهؤلاء الذين يتطلعون إلى حكومة عالمية يشيرون إلى أن كل البشرية هى الآن بشكل أكثر مجتمع واحد يعتمد بعضه على بعض أكثر من مجتمعاتها السابقة بحبها العنيف للاستقلال، وأنه قد تحقق الآن أننا جميعا نعيش فى سفينة فضاء أرضية واحدة. وزيادة على ذلك، فإنه فى «العصر الذرى وعصر المجاعة»، فإن الاستقلال والسيادة المطلقة أصبحت تبدو كشىء لا يتفق مع الزمن شأنه شأن المراكب الشراعية والأقواس. وما يقال الآن أن البشرية فى مجموعها تحدق بها الأخطار المشتركة والتى إن لم تعالج منا جميعا فإنها يمكن أن تؤدى عمليا إلى تدمير الجنس البشرى بأسره. إن كارثة نووية، والتلوث ، والانفجار السكانى، والنقص المتزايد فى الطاقة والمواد الأولية هى أخطار تشبه فى قوتها تلك التى هددت من قبل المستعمرات الأمريكية. وحتى هؤلاء الذين يعتبرون أن الذين يدعون إلى اتحاد فدرالى يبالغون فى الدرجة التى أصبحت فيها البشرية فى تنوعها مجتمعا واحدا وفى الأخطار التى تهددنا عليهم أن يعترفوا أن العالم يتحرك فى هذا الطريق، وأن المجتمعات المختلفة التى ينقسم إليها

العالم إنما تصبح أكثر اعتمادا على بعضها البعض، وأن الأخطار التى تتهددنا تزداد سوءا. وما دامت الخطوة الأولى فى السياسة هى الاعتراف RECOGNITION ، فإنه من المهم أن تكون قادرا على أن تشير إلى درجة من التوافق حول أى من الأخطار التى تواجه البشرية يجب أن تعامل كمشكلات تتطلب جهدا سياسيا دوليا لحلها. وما دام هناك اتفاق حول المشكلات التى يجب أن تواجه (سواء الآن أو فى المستقبل القريب)، ثمة مسألتان أساسيتان تثوران حول قيام اتحدا فدرالى عالمى كحل لذلك. فهل مثل هذه الخطوة الجذرية ضرورية لحل هذه المشكلات؟ وهل تخلق هذه الخطوة مشكلات أكثر خطورة مما تحل؟

وباعتبار أننا نريد أن نحل هذه المشكلات الملحة عن طريق التراضى وليس بالقسر فى إمبراطورية رومانية أو صينية جديدة، فإن موضوع الضرورة إنما يطرح كما يلى: هل نستطيع أن نجعل جميع، أو الأغلبية الحاسمة، من الدول تعمل معا لكى تحل هذه المشكلات بشكل دولى يتخطى الحدود القومية، فى الوقت الذى تترك فيه القرارات حول كيفية الشروع فيها، وأيضا السيادة المتبقية، إلى أعضاء المجتمع الدولى؟ أو أنه يجب أن تتفق الدول أولا وقبل كل شىء على أن«تجمع سيادتها» فى حكومة عالمية من أجل هذه الأهداف، ثم تدع الحكومة العالمية تقرر حول الإجراءات المطلوبة للتعامل مع هذه المشكلات العالمية وفرض قراراتها؟ وإذا ما نظرنا إلى ما يحدث فعلا فى الشئون الدولية فسنرى أن البديل الأول هو الذى يجرى اختياره، فثمة بحث مكثف من جانب دول مستقلة عن مجالات اتفاق يمكن أن يتصرفوا ويعملوا فيها معا (كأن يتفقوا على تبنى سياسات متماثلة) لكى يحلوا مشكلات مشتركة. والحقيقة أن كل القرن العشرين قد تميز بهذا البحث على الرغم من نكسات كبيرة. وبنمو الاعتماد المتبادل ، وتناقص إمكانية العمل المنفرد، فإن الدول الأكبر والأكثر استقرارا فى العالم يصبح وعيها أكثر حدة بالحاجة إلى التعاون. ولذلك فإن استعدادهم يتزايد لكى يحيلوا مسئوليات اتخاذ القرارات إلى أجهزة دولية تتكون من وفود تعين بواسطتهم ومسئولين أمامهم، وتصمم هذه الأجهزة كجزء متكامل من الحوار الدبلوماسى بينها. وبشرط أن تراعى هذا المعيار ، فإن الدول سوف تلزم نفسها مقدما بقبول القرارات التى تصل إليها هذه الأجهزة بهذه الطريقة فإنها توافق على أن تضيف إلى القواعد ومعايير الشكوى التى تقرر كيف يتصرف أعضاء المجتمع الدولى، وبعبارة أخرى تضيف إلى جهاز تنظيم القانون الدولى.

إن الحاجة إلى اتفاقيات بحرية كانت موضع اعتراف لعدة قرون، كما تؤخذ الآن المعاهدات البريدية والخاصة بالطيران المدنى كشىء مسلم به كما تنظم الحياة الاقتصادية الدولية بواسطة

اتفاقيات نقدية وتعريفة، وقد وضعت هذه الاتفاقيات أولا بواسطة الدول الصناعية الكبيرة غير الشيوعية، ثم صاغت الدول الشيوعية علاقاتها الخاصة بهذه الاتفاقيات، سواء تلك التى ينظر إليها كجزء من القانون الدولى أو تلك التى هى ذات طبيعة تعاقدية ملزمة بشكل أكثر، إنما تحد بشكل تدريجى من حرية العمل لجميع الدول.. وفى مسائل مثل التلوث، والمحافظة على البيئة، فإن الدول المستقلة توافق على قبول القرارات الجماعية لأغلبية أقرنها حتى وإن لم ترض عن بعض هذه القرارات. لأنه ، وبشكل متوازن، من مصلحتها إن تفعل ذلك. وفى أكثر المجالات الفنيةحساسية مثل التحكم فى البترول أو التسلح، والتى لها معان سياسية كبيرة، فإن الاتفاقيات الدولية يجرى التفاوض عليها بشكل تدريجى. وثمة مسائل سياسية أكثر تخصصا مثل الحدود الإقليمية بين الدول، وحق الدول الجديدة فى الاعتراف الدولى، وبشكل عام، كل المسائل التى تبدو مهيأة بشكل خطير لأن تؤدى إلى الحرب، هى بالحتم أكثر صعوبة فى حلها، وهى بهذا المعنى تقع ضمن فئة لها ذاتيتها الخاصة وتتطلب فحصا منفصلا.

إن القضايا التى أثارها تزايد الاعتماد المتبادل بين البشر والتى أطلق عليها «جيل المجتمع الدولى» ، إنما تخلق وعيا متزايدا بأن البشرية لها هوية مشتركة فى مواجهة هذه القضايا، ويجب أن تتخذ عملا سياسيا مشتركا لحلها. وحول نطاق عظيم ومتزايد من القضايا ذات الطابع السياسى والفنى ، حيث العديد منها حيوى لمستقبل الإنسان على الأرض، ثمة اتفاقيات دولية يتم التوصل إليها عن طريق عملية من المساومة الجماعية الحرة بين الدول. وتلزم هذه الاتفاقيات الموقعين على أن يتنازلوا عن بعض المظاهر المحددة بشكل دقيق لحريتهم فى العمل فى المستقبل من أجل مقاومة تهديد ما عن طريق العمل معا.

إن النقطة التى يتعين علينا أن نلاحظها أن هذا الطريق المتقدم هو طريق الدبلوماسية. وهو تطور على قدر كبير من الأهمية، بسبب توسع مضمون المفاوضة الدبلوماسية وبسبب الاتجاه الذى تتحرك إليه الشئون الدولية نحو مجتمع من الدول منظم بشكل جماعى أكثر، إن المفاهيم السابقة فى السياسة الدولية (واللغة المستخدمة لوضعها) ، إنما تتسع بشكل متزايد نتيجة لثورة الخبرة الجماعية الجديدة وكل اتفاقية من هذا النوع تتضمن إحالة سلطة دولة ما فى اتخاذ القرار إلى سلطة دولية مؤهلة بشكل فنى عالمى أو إلى مجموعة من الدول تكون الدولة فيها فى وضع الأقلية. ولكن من المهم أن نذكر أن هذا التفويض للسلطة هو فى ذاته قرارات تتخذها دول مستقلة. وتستطيع الدولة أن تسحب تفويضها للسلطة وتستأنف حقها

فى اتخاذ القرار. وفى مجالات حساسة مثل الاختبارات النووية، فإن بعض الدول القوية مثل فرنسا، والصين قد ترفض قبول الاتفاقية على الإطلاق(بينما يحدث فى تجمعات أصغر مثل المجموعة الأوروبية أن ترفض دولة قبول قرارات جماعية حول مسألة تعتبرها حيوية بالنسبة لها) . وبالإضافة إلى ذلك فإن الخبراء الذين يتخذون القرارات فى أجهزة دولية من هذا النوع قد يكونون خبراء فنيين وليسوا أعضاء فى وزارات الخارجية، ولكنهم يتصرفون كممثلين دبلوماسيين، فهم يتخذون قراراتهم ويعطون أصواتهم كممثلين لدولهم، ويتصرفون وفقا لتعليمات يتلقونها من حكومتهم التى تستطيع أن تستدعيهم فى أى وقت. فمداولاتهم، وقراراتهم، وقبول حكوماتهم لها، هى كذلك فرع من الدبلوماسية الجماعية الحديثة. والمبعوثون الحكوميون الذين يساعدون فى إدارة الحوار المتصل والمفاوضات بين حكومات بهذه الطريقة، إنما هم فى الواقع فى موقف مختلف تماما عن أعضاء البرلمان المنتخبين مثلا والذين ليسوا ممثلين يتلقون تعليمات، وإنما هم رؤساء يصوتون وفقا لحكمهم الخاص، أو، وهو الأكثر شيوعا هذه الأيام، وفقا لقرار حزبهم السياسى، ولكن يمكن أن نقرر ببساطة أن الوظيفة الإشرافية للمشرع هى تقييد السلطة التنفيذية، بينما وظيفة مؤتمر دولى هى أن يقيم توافقا فى الآراء بين عدد من السلطات التنفيذية.

ويتزايد إلزام الحكومات نفسها بالدبلوماسية الجماعية من خلال أجهزة دولية بدلا من النظر إلى الأجهزة كشىء مكمل للإجراءات إلى سمة للمفاوضات الثنائية، فإن عمل الدبلوماسية يتغير كما تغير فى الماضى. ولكنها ما زالت محتفظة بالطابع الدبلوماسى السابق، وجميع هذه المفاوضات الجماعية هى عمليا حوارات متعددة الأطراف بين الدول، وهى تستكمل بالدبلوماسية الثنائية مباشرة بين الحكومات. ودور الدبلوماسية الثنائية فى هذا المجال هو إلى حد كبير جعل الأسباب التى تردد من أجلها الدولة مفهومه لدى عواصم أخرى، وأن تبحث عن طرق للإقناع والتكيف لضم الدول المترددة.

وبتحرك هذه المناقشات من المشكلات الفنية إلى مشكلات سياسية أكثر، فإن التعاون الإرادى بين دول مستقلة يصبح أكثر صعوبة، والاستعداد لجمع السيادة أكثر ندرة، وفى المسائل السياسية العليا وخاصة تلك المرتبطة بالحرب والسلام، فإن الدبلوماسية الحديثة تستخدم أسلوبين رئيسيين. أحدهما من خلال دبلوماسية ثنائية متعددة الجوانب مع عدد من الدول تتشاور مع بعضها البعض بشكل خاص. وعادة من خلال سفرائها المقيمين لتهيئة الطريق إلى مفاوضات متعددة حول موضوعات محددة فى مؤتمرات تعقد لهذه الموضوعات

بالذات. والأسلوب الآخر هو من خلال الأمم المتحدة وأجهزتها المرتبطة بها. ولا يحتاج الأسلوب الأول أن ندرسه فى سياق البدائل للنظام الحالى، وإن كان يجب أن نلاحظ أنه وخاصة حول بعض المسائل الصعبة. فإن الدول الكبيرة، تعتبر أن المؤتمرات التى تعقد لبحث موضوعات محددة هى أكثر فعالية وأكثر احتمالا لأن يصدر عنها نتائج من المناقشات العلنية المتعددة فى الأمم المتحدة حتى ولو استكملت ومنحت بعض الترابط بمشاورات خاصة تتوازى معها، ومن الأمثلة الحديثة على ذلك، المفاوضات من أجل الانسحاب من الهند الصينية والمؤتمرين الكبيرين حول السلام والأمن، والخفض المتوازن للقوات فى أوروبا. ومن المعترف به أن الأمم المتحدة كما تشكلت حتى الآن لها «حد أعلى من الفائدة»، يصبح بعده من المفيد استخدام أشكال أكثر تقليدية للمفاوضات بين الدول.

ورغم هذا، فإن الأمم المتحدة إنما تمثل تجديدا ذا أهمية عالية فى نظم العلاقات بين الدول. إنها أكثر الأجهزة أهمية لأنها ليست متخصصة وإنما هى رابطة عامة وعالمية من الدول، كما أنها بشكل أخص مخولة فى ميثاقها بأن تعالج المسائل السياسية. وسابقتها عصبة الأمم تمثل أولى الخطوات التجريبية نحو سلطة دولية على نطاق عالمى. كما أنها مصممة لأن تكون أكثر من مجرد وكالة تنظيمية تتعلق بالأمن، وقد جعلت الأجهزة العامة والمتخصصة لهذه المنظمات المتعددة من الممكن استكشاف وصياغة أهداف عامة واكتساب قبول أوسع لها من جانب الدول والشعوب أكثر مما هو ممكن عن طريق الاتصالات الثنائية وحدها. وهى فى أوقات ما تكون قادرة على التصرف كضمير للبشرية يعبر عنه بشكل رسمى إلا أنه رغم بعض الإجراءات شبه البرلمانية فإن مثل هذه المنظمة ليست مشرعا عالميا أو يمكن أن تمثل حكومة عالمية. إنها فى الواقع ، ورسميا، تجمع دائم للمبعوثين الدبلوماسيين يمثلون تقريبا جميع الدول المستقلة فى المجتمع الدولى. وثمة قدر كبير من التشويش والآمال المحبطة والتمنى ونقد لا مبرر له حول كل من العصبة وهيئة الأمم، وهو ما نتج عن توقع أن يكونوا ما ليس فيهم. وكما عبر آندروبانج السفير السابق للولايات المتحدة فى الأمم المتحدة بشكل دقيق «إن الأمم المتحدة لم تصمم لكى تكون، كما أنها ليست كافية لأن تخدم، كجهاز منشىء للقانون أو كمحكمة لكى تحكم على أمم العالم، إنها منبر للدبلوماسية، والدبلوماسية الحقة هى فن الحوار بحثا عن أهداف مشتركة وتفادى الحرب» فليس فى المنظمة الدولية سلطة تنفيذية قادرة على إصدار أو تنفيذ الأوامر، ويترك للدول المعنية أن تقرر إلى أى حد سوف تنفذ توصيات الجمعية العامة، وأيضا قرارات مجلس الأمن النادرة وإن كانت نظريا

واجبة التنفيذ. غير أن الأمم المتحدة هى أيضا منبر عالمى حيث تستطيع دول حتى الصغيرة جدا منها والتى قد لا يسمع عنها فى غير هذا المجال، أن تصدر التعليمات لممثليها لكى يجعلوا وجهات نظرهم وقراراتهم حول موضوعات معنية معروفة بشكل علنى.

إن الجمعية العامة مصممة لكى تضمن العالمية أكثر مما توفر الفعالية ، فهى تقدم تمثيلا متساويا لكل عضو، ولأن معظم الدول الآن صغيرة للغاية من ناحية السكان والتعداد الأمر الذى يجعلها تكون بسهولة أغلبية الجمعية العامة. وهى أغلبية لا تمثل تماما الرأى العالمى ولا القوة العالمية، وعلى عكس المشرع، وعلى عكس مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة، فإن الجمعية تستطيع فقط أن تصدر توصيات إلى الدول، وهى لا تتحكم فى ضرائب أو تسيطر على الإنفاق اللهم إلا فى المبالغ التى تقدمها لها الحكومات. ومع هذا فإنها، مع ما هى عليه من عدم الفاعلية النسبية ، وانعدام نسبى للقوة إنما تمارس بالفعل إشرافا ما على تصرفات الحكومات، بعضها أكثر من الأخرى بنفس الشكل الذى يفعله مجلس استشارى داخل دولة. هذا النفوذ العالمى لمجموع الدول على أعضائها من خلال المناقشة العلنية والتصويت هو شىء جديد أو على الأقل بذرة شىء جديد. ولكنه تجديد فى الدبلوماسية ـ فن الحوار بين الدول ـ وليس ابتعادا عنه. واحدى الوظائف الرئيسية البناءة للجمعية، وإلى مدى أقل للأمم المتحدة بشكل عام، هى أن تقدم مكانا دائما، ومستمرا للإجماع للدبلوماسيين المحترفين الذين يمكنهم أن يقيسوا بصورة شخصية القوة الحقيقية لكل منهم ونفوذه خارج نطاق المساواة الرسمية فى قاعة المناقشة العامة التى تعطى العدد الأوسع للدول الضعيفة قولا لا يتناسب مع قوتهم. وإن حضور وزراء الخارجية من وقت لآخر بل ورؤساء الحكومات يعزز من فرصة الحوار المباشر على أرض محايدة.

إن نمو الدبلوماسية الجماعية ، والتزامات الدول التى تحد عمليا من حريتها فى العمل، يجعل من المستحيل علينا أن ننظر إلى الدول المستقلة والنظام العالمى الذى يقوم برضى أعضائه على أنهما مفهومان مستقلان تماما، على العكس فهناك نطاق انتقالى واسع بين نظام عالمى تسيطر عليه الفوضى الكاملة أو دبلوماسية ثنائية ودول تتجمع فى تحالفات ولكن بدون مؤسسات جماعية، بين حكومة عالمية فدرالية أو مسيطرة بدون دول مستقلة. فى هذا النظام النظرى من المجتمعات الدولية فإن سيادة واستقلال الدول دائما قائمة، ولكنها تبدو متناقصة وخاضعة لقيود أعظم ونحن نتطلع عبرها من الفوضى إلى حكومة عالمية. وفى كتابة عن المجتمع الفوضوى وصف هدلى بول الموقف الراهن حيث الدول ما زالت مستقلة

ولكنها خاضعة للعديد من القيود والحدود التى هى إلى حد ما نتيجة الدبلوماسية الجماعية غير أن القيد الحقيقى الذى يرتكز عليه الاستقلال العام للدول الأعضاء ما زال كما كان فى أيام ما قبل الدبلوماسية الجماعية وأعنى التوازن بين الدول الأقوى الذى يمنع سيطرة أى منهم. إن انهيار الهيكل الراهن للمجتمع الدولى، أو دمارا شاملا، لا مجرد أزمة مثل فيتنام أو أزمة الطاقة، هو فقط الذى يجعل رجال الدولة يوافقون على قيام حكومة عالمية حقيقية وليس حكومة مسيطرة، خاصة تلك التى تميل لاتخاذ قرارات ضدهم. فإذا ما قلب حدث ما بشكل جذرى توازن القوى وخلق قوة واحدة أعظم فى وضع تمارس فيه هيمنة عالمية، فإن هذه القوةقد تلبس سيطرتها زيا فيدراليا أو تقنع بجعل الأمم المتحدة تصدق وتدعم من سيطرتها حتى تمنح الواقع المسيطر الجديد شرعية جماعية.

وفى أى من الحالتين، فإن الاستقلال الحقيقى سوف يختفى، وتختفى معه الدبلوماسية الحقيقية. ولكن بين مثل هذه التطورات والنظام الحالى هناك مدى واسع من مجالنا النظرى الذى تصبح فيه حرية الدول على العمل محدودة بشكل متزايد بالمفاوضة الدبلوماسية. وعلى العموم، فإن رجال الدولة وخاصة من القوى الكبرى، يعتبرون أن المشكلات التى تنشأ من تزايد الاعتماد المتبادل للبشرية ومن الأخطار التى تهددها إنما تعالج بشكل مُرْضٍ من خلال اتفاقيات تتفاوض حولها الدول ذات السيادة من أجل عمل مشترك لحلها، وما دامت الحكومات تعتقد فى هذا الرأى أو على الأقل تعتبر أن أخطار وشرور نظام دولى هى أقل من تلك التى سوف تنشأ من توحيد سيادتهم فى حكومة عالمية ، فإنها سوف تستمر فى العمل على الأساس الراهن، ولكن يبدو محتملا أنه بنمو الاعتماد المتبادل وأخطار الحرب النووية التى تصبح أكثر رعبا، فإن الدول الكبرى سوف تتعاون أو تحترم رغبات بعضها البعض بشكل أكثر فعالية مما كان فى الماضى.

وهكذا إن الإجابة على السؤال الخاص بما إذا كان اتحاد فدرالى عالمى ضروريا لحل المشكلات التى تثور من تزايد اعتمادنا المتبادل وأن شيئا أقل من هذا الاتحاد لن يكون مفيدا، فإن الإجابة هى أن هذا حتى الآن لم يثبت، ولكننا نستطيع أن نرى الجمعية العامة للأمم المتحدة وأجهزة دولية أخرى، وحتى بما تمتلىء به من قصور خطير، على أنها تعكس بدايات طريق جديد من التفكير حول الشئون الدولية التى يمكن فى وقت ما أن تحول العلاقات بين الدول ومن ثم طبيعة الحوار الدبلوماسى.

إن السؤال حول ما إذا كان اتحاد فدرالى عالمى هو طريق عملى لتنظيم شئون البشر، أو ما إذا كان سيثير مشكلات أخطر من تلك التى أقيم هذا الاتحاد لحلها، هو سؤال ينتمى إلى دراسة الحكومات، وكيف تعمل السلطات ويتم الإشراف عليها، أكثر من انتمائه لدراسة الدبلوماسية، إن مفاوضات دبلوماسية مكثفة سوف تكون بالتأكيد ضرورية لكى تتفق دول العالم على أن تندمج فى اتحاد ولكن الحوار الدبلوماسى سوف ينتهى فى الوقت الذى تختفى فيه الدول المستقلة.

إن أفضل أمل فى تكيف منظم وسلمى مع التغير فى الممارسة الدولية، والذى يجعله ضروريا ضغوط التكنولوچيا التى تتقدم بشكل سريع والمفاهيم المتغيرة للعدالة، إنما يكمن فى توسيع نطاق الحوار الدبلوماسى بين الدول وتعديل مؤسساتها وأساليبها (وهو ما يحدث بالفعل)، أكثر من أن ننشد إزالة هذا الحوار والدول المستقلة لصالح نظام عالمى سياسى مختلف تماما. وحين نكون قد انتهينا من فحص عمل المؤسسات الدبلوماسية فى الماضى والحاضر، فسيكون ممكنا أن ننظر فى تحسينات وطرق لتعديل كل من مطالب الدول حول النظام الدولى والأساليب التى تعمل بها الدول لتحقيق ذلك.

وقبل أن نترك ـ كلية ـ السؤال حول بدائل الدبلوماسية، يجب أن نبحث فكرة أن تنظيم العالم قد يتغير بشكل جذرى، وبطرق لا نستطيع أن نتنبأ بها وعلى نحو قد لا يبقى فيه مجتمع يتكون أساسا من دول مستقلة أو اتحاد أو سيادة عالمية. وهذا بالطبع ممكن. وقد كانت العصور الوسطى مختلفة تماما، فى هيكل المجتمع بأسره، وكذلك فى علاقة حاكم بآخر، عما كان سائدا قبل ذلك وعما جاء بعد ذلك، وهؤلاء المفكرون حول الشئون الدولية الذين يرون هذه الإمكانية يتحدثون أحيانا عن«نظام جديد أشبه بما كان سائدا فى العصور الوسطى» وهم لا يعنون بهذا ارتدادا إلى القرون الوسطى وإنما نظام جديد مختلف تماما.

وقد اقترحت قلة من المفكرين أن الشركات عبر القومية مثل شركات البترول الضخمة أو أحزابا مثل الأحزاب الشيوعية أو الكنيسة الكاثوليكية، ربما قد تتجاوز نظام الدولة،وتحدث تغييرا جذريا، غير أنه حتى الآن فإن هذه النظم لم تثبت أنها ناجحة فى أن تشجب أو أن تحل محل سلطة الدول المستقلة أو النظام الإرادى لنظام الدول التى استوعبت فيه، وفى الواقع فإن بديلا يمكن تبنيه ، لا يبدو بعد فى أفق الوعى السياسى، ومعظم المفكرين الذين يستخدمون عبارة« الإخلاص لنظام ومؤسسات القرون الوسطى» إنما يعنون بها أننا لا نستطيع أن نتخيل اليوم أكثر مما تخيل الرومان النظام الإقطاعى. وما داموا لم يتخيلوه فإنهم لا يناقشونه كبديل ولكنهم ببساطة يسلمون بحقيقة أن المستقبل لا يمكن التنبؤ به.

الفصل الثالث

الدبلوماسية عبر ثلاثة قرون

Henry Kissineer. "Diplomacy", New Yokk:, Simon and Schuster, 1944, 1104 pp

أدهش هنرى كيسنجر مستشار ـ الأمن القومى ووزير الخارجية الأمريكى الأسبق ـ ١٩٦٩ ـ ١٩٧٧ ـ الدوائر الاكاديمية والدبلوماسية حين أصدر عام ١٩٩٤ عمله الضخم Diplomacy (١١٠٤ صفحة): والواقع انه يجب أن ننظر إلى صدور هذا الكتاب كحدث كبير ليس فقط بسبب شخصية مؤلفه وتاريخه الأكاديمي والدبلوماسى وأدواره الحاسمة فى توجيه وصياغة السياسة الخارجية الأمريكية والسياسات الدولية طوال حقبة السبعينايات، وإنما بسبب ما يقدمه الكتاب من استعراض عريض ودروس ثابتة للدبلوماسية على مدى ثلاثة قرون امتدت منذ نشوء الدبلوماسية الأوروبية كما صاغتها المدرسة الفرنسية، الكاردنيال ريشيليو Richeleu، فى القرن السابع عشر حتى الدبلوماسية الأمريكية ووصولها إلى قمتها فى عهد رونالد ريجان والتى أنهت فى الواقع عصرا كاملا من الدبلوماسية والعلاقات الدولية.

وبداءة فالكتاب هو دراسة للتقاليد المتعارضة للسياسة الخارجية والدبلوماسية الأوروبية والأمريكية، وهى التقاليد التى تمتد جذورها فى رؤى متشابهة ومتناقضة حول طبيعة إدارة الدولة. فالتقليد الأوروبى فى الحكم يتجسد فى نظرية: Raison D`ETAT والتى تقدم مطلب ذاتية الدولة ومصلحتها وعلو هذه المصالح، وأمن الدولة واستقلالها واستمراريتها على غيرها من الاعتبارات، أما فى التقليد الامريكى فهو ينطلق من قناعة أن الولايات المتحدة قد رفضت هذا المفهوم القديم لوجود الدولة، وأنها تدافع عن شىء جديد تحت الشمس، وأن قدرها هو أن تقود العالم من القديم إلى الجديد. ووفقا لهذا التقليد فإن الولايات المتحدة ستكون محصنة ضد الإغراءات، والتجاوزات المرعبة للمفهوم الأوروبى عن سبب وجود الدولة، وذلك بسبب طابعها الجمهورى، والظروف الحميدة المصاحبة لنموها، والفضيلة الكامنة فى مواطنيها. ووفقا للمشروع الامريكى فان أهداف السياسة الخارجية يمكن أن تفهم بشكل سليم باعتبار: أنها فقط وسيلة لنهاية هدفها حماية وتنمية حرية الفرد ورفاهيته. ووفقا لهذا المشروع والروءية الأمريكية كذلك ـ وكما بلورها بشكل خاص ودرو ويلسون ـ فإن السلام وليس الصراع يمثل النظام الطبيعى، والتعاون ، وليس الصدام هو مصير البشر والأمم. وبينما كانت الحرب فى المفهوم الأوروبى للدولة هى الأداء العظيم لوجود الدولة، فانها ترى فى المشروع الأمريكى ليس فقط كشر، ولكن شر غير ضرورى.

وهكذا فإن الكتاب هو قصة عمل هذين التقليدين، الأوروبى منذ القرن السابع عشر، والأمريكى فى القرن العشرين. إنه ليس عملا فى التاريخ الدبلوماسى بالمعنى التقليدى.

فكيسنجر ليس مهتما بما ذكره أحد الموظفين للآخر، ولكن اهتمامه أكثر شموخا وشمولا، فاهتماماته تتعامل مع المآزق والمعضلات الأبدية للسياسة الخارجية التى تواجه رجال الدولة الأوروبيين العظام ابتداء من ريشيليو حتى ديجول، وهى تركز على كيف أن هؤلاء الذين سيطروا على نظام الدولة المعاصر ـ باخير أو بالشر ـ واجهوا تحدياتهم، وكيف حللوا طبيعة الإنجازات، وفشل هؤلاء الذين لعبوا فى لحظة تاريخية دورا رئيسيا على المسرح العالمى. وكتاب «دبلوماسية» ليس فقط انتقائيا فى معالجته التاريخية ولكنه يُقرأ باعتباره سلسلة من القصص البطولية لرجال دولة: سواء منهم الأعمى أم البعيد النظر، الذى ينطوى على مجرد المهارة، أو العميق ، الذى يفتقد العزيمة أو المصمم ، وقد انشغل كيسنجر دائما بمشكلة القيادة، ودور الشخصية العظيمة فى التاريخ ، وهو لم يبد مثل هذا الانشغال كما أبداه فى كتابه الأخير. فالكتاب هو أكثر من أى شىء آخر دراسة فى فن ومعنى القيادة سواء كانت محافظة أم ثورية، استبدادية أم ديموقراطية، وطالما أن القيادة لا تنفصل عن ممارسة القوة، فإنها أيضا دراسة عن السلطة والنفوذ واستخداماتها.

وأخيراً فإن «دبلوماسية» هو بحث فى طبيعة النظام الدولى ومحاولات القرنين الماضيين لإقامة مثل هذا النظام. وطبيعة مثل هذا النظام فيما يعتقد هى القضية الكبرى التى يجب ان نتوجه إليها ونعالجها بشكل جاد. وأن نفعل ذلك، فإن دراسة جهود الماضى لخلق نظام دولى يجب ان تهمنا للدروس التى تعلمنا إياها حول ما نستطيع أن نأمله لتحقيقه فى المستقبل. وهو إذ يأخذ هذا الموقف فإنه من الواضح أن كيسنجر يفترض أن المستقبل سوف يشبه الماضى، أما فيما يتعلق بمفهومى الاستمرارية أو التغير فى النظام الدولى، فإن الاول هو الذى سوف يسود. إن السياسة الدولية هى حقل اللامتغير فالأمم قد تبحث عن المصلحة الذاتية أكثر من المبادىء الرفيعة، كما قد تنافست أكثر مما تعاونت، وثمة دلائل قليلة على أن هذا النمط من السلوك القديم قد تغير أو أنه من المحتمل أن يتغير فى الحقب القادمة، فإذا كان ثمة ما يميز التطور فى النظام الحالى فهو، فوق كل شىء ، تفتته: FRAGMENTATION من ناحية، وعالميته المتزايدة من ناحية أخرى، وخلافهما يجعل النظام أكثر ضرورة عما كان من قبل، ويجعل تحققه والوصول إليه أكثر صعوبة.

ويعتبر كيسنجر أن جانب السخرية فيما يتعلق بالمستقبل الأمريكى يتمثل فى أنه فى الوقت الذى برزت فيه الولايات المتحدة منتصرة من صراعها الطويل مع الاتحاد السوفيتى، فإنها تواجه عالما حاولت أن تتهرب منه عبرتاريخها كله، أما عالم القرن الواحد والعشرين سيكون عالما لن تستطيع الولايات المتحدة لا إن تنسحب منه أو تهيمن عليه، وأصبح من

قدر أمريكا أن تشارك فى النظام الدولى، وإن لم تكن بالطريقة التى شاركت فيها خلال فترة الحرب الباردة ويقتنع كيسنجر أن نظام الغد سوف يشبه النظم العالمية فى الماضى، وباعتبار عالم تنتشر فيه القوة، فإن النظام سوف يعتمد على توازن القوة. ولكن هذا سوف يثبت أنه صعب بوجه خاص بالنسبة لدولة تمتلك فقط خبرات العزلة والسيطرة، وأيا من الخبرتين ليست كافية للاستعداد لكى تصبح مجرد أمة، حتى لو ظلت أمة عظمى، بين أمم أخرى.

غير ان السؤال المركزى الذى سوف يعالجه كيسنجر فى ضوء متغيرات القوة وعلاقاتها بعد الحرب الباردة هو ما إذا كانت أصول اللعبة قد تغيرت عما كانت عليه فى الماضى، فى هذاالشأن يعترف كيسنجر أن عالم القرن الواحد والعشرين سوف يحمل أوجه شبه صارمة فى عدد من الوجوه مع القرنين الثامن والتاسع عشر. وبافتراض غياب تهديد أيديولوچى أو استراتيجى شامل، فإن المصالح القومية التقليدية سوف تسود مرة أخرى. كما أنه بغياب نظام يعتمد على ثنائية القوة، فإن المتوقع هو العودة لنظام توازن القوة. ويكتب كيسنجر عن الفترة الحالية «لم يحدث من قبل أبدا وجود مكونات نظام عالمى، وقدرتها على التفاعل، وتغير أهدافها بهذه السرعة وبهذا العمق وبهذه العالمية. كما لم يحدث من قبل أن يكون النظام العالمى من مراكز رئيسية تتوزع حول العالم، وتختبر فيه الأحداث فى الحال وفى وقت واحد».

ورغم هذه التغيرات الواسعة، فإن كيسنجر يتوقع نظاما عالميا تسود فيه الاستمرارية مع الماضى. فعالم القرن المقبل فى نظره سيكون عالما تسيطر عليه كما فى الماضى ـ القوى العظمى (ويرتبهم كيسنجر بالولايات المتحدة، أوروبا ، الصين ، اليابان، روسيا، وربما الهند) وسوف تستمر علاقات القوة والمستقبل، مثلما كانت دائما فى الماضى، هى القوة الدافعة للسياسات الدولية. وهذه العلاقات سوف تتصف بالصراع مثلما تتصف بالمصالح المشتركة ـ وباعتبار أن هذا سيكون هو المستقبل، فإن الحاجة إلى نظام لن يستمر وتتأكد فقط، بل ستكون الحاجة إليه أعظم من الماضى. وفى غياب دولة واحدة مسيطرة قادرة على أن تفرض رؤيتها للنظام ، فإن كيسنجر يستخلص أن هذه الحاجة يمكن تحقيقها فقط باللجوء إلى توزان القوة..

وبعد هذه النظرة الشاملة على عمل كيسنجر سنحاول أن نعرض بشىء من التفصيل لمعالم التاريخ الحديث للدبلوماسية كما أرخ لها كيسنجر ولمراحلها وتطورها وأيضا للشخصيات الدبلوماسية ورجال الدولة الذين طبقوا وأداروا دبلوماسية بلادهم هذا التطور..

وبداءة ينبه كيسنجر إلى أنه بفعل قانون طبيعى ، يبدو أنه فى كل قرن تبزغ قوة لها من القوة، والإرادة، والدافع الأخلاقى والثقافى ما يمكنها ويؤهلها لأن تشكل النظام الدولى وفقا لقيمها ومعاييرها الخاصة. ففى القرن السابع عشر أدخلت فرنسا فى ظل الكاردينال ريشيليو الأسلوب والتناول الحديث للعلاقات الدولية القائمة على الدولة القومية NATION STATE والمدفوعة بالمصلحة القومية كهدفها النهائى، وفى القرن الثامن عشر، صاغت بريطانيا العظمى، مفهوم، توازن القوة BALANCE OF POWER وهو المفهوم الذى سيطر على الدبلوماسية الأوروبية على مدى المائة العام التالية، وفى القرن التاسع عشر، شيد المستشار النمساوي مترنيخ مفهوم: the concept of Europe، وفككه المستشار الألمانى بسمارك معيدا صياغة الدبلوماسية الأوروبية كلعبة دموية لسياسة القوة POLITICS OF POWER†وفى القرن العشرين لم تؤثر دولة فى العلاقات الدولية بشكل وبشكل متناقض فى نفس الوقت مثل الولايات المتحدة الأمريكية.

الدبلوماسية من ريشليو RICHELIEU إلى ريجان:

ويبدأ هنرى كيسنجر رحلته مع تاريخ الدبلوماسية الحديث وتقييمه لها منذ سيد الدبلوماسية الفرنسية الكردينال ريشيليو فيقول ، إن ما يصفه المؤرخون اليوم بنظام توازن القوى الأوروبى ترنح فى القرن السابع عشر نتيجة الانهيار النهائى لآمال وتطلعات القرون الوسطى حول العالمية التى تستند إلى مفهوم النظام العالمى يمثل مزيجا من تقاليد الإمبراطورية الرومانية والكنيسة الكاثولوكية، وحيث كان العالم يتصور باعتبار أنه مرآة للسماء، ومثلما أن ثمة إله واحد يحكم السماء، فإن إمبراطور واحد يجب أن يحكم العالم العلمانى، وبابا واحد للكنيسة العالمية.

وبانهيار هذا المفهوم ، فإن الدول البازغة فى أوروبا احتاجت بعض المبادىء لكى تبرر بها هرطقتها وتنظم علاقاتها، وقد عثرت على هذه المبادىء فى مفاهيم:

RAISON DE'ETAT ، وتوازن القوى BALANCE OF POWER وبشكل يعتمد كلا منهما على الآخر. فقد أكد المفهوم الأول أن رفاهية الدولة تبرر أى وسائل تستخدم لتحقيق هذه الرفاهية وتقدم الدولة، وكذلك حلت المصلحة القومية محل الفكر الذى ساد فى العصور الوسطى حول الأخلاق العالمية. أما مفهوم توازن القوى فقد حل محل الحنين إلى المملكة العالمية وبالاعتقاد بأن اتباع كل دولة لمصالحها الخاصة سوف يساهم فى أمن وتقدم الآخرين.

وقد جاء أول صياغة شاملة لهذا التناول الجديد من فرنسا والتى كانت أول دولة قومية فى أوروبا. وكان المحرك الأول لهذه السياسة الفرنسية شخصية غير متوقعة وهو أحد امراء الكنيسة ARMEND TEUN DU PLESSIS أو الكاردينال ريشيليو، الوزير الاول لفرنسا من عام ١٦٢٤ ـ ١٦٤٢ . وقد عقب البابا أوربان الثامن على وفاته بقوله «إذا كان هناك إله، فإن الكاردينال ريشيليو سيكون عليه أن يجيب على الكثير من الأسئلة، فإن لم يكن، فإن الكاردينال يكون قد فاز بحياة ناجحة». ومثل هذا الرثاء الغامض كان لا شك سيسر رجل الدولة، والذى حقق فى الواقع نجاحا واسعا يتجاهل ويعلو على المعتقدات الدينية الرئيسية للعصر. وقليل من رجال الدولة هم الذين يستطيعون أن يدعو أنهم تركوا أثرا فى التاريخ كما تركه الكاردينال ريشيليو، فهو فى الواقع الأب والمؤسس فى نظام الدولة الحديث، فقد نشر مفهوم بـ RAISON D'ETAT ومارسه وطبقه بشكل لا يلين لصالح بلده، وتحت رعايته، فقد حل هذا المبدأ محل مفهوم القرون الوسطى حول القيم الأخلاقية العالمية، وجعله المبدأ الموجه للسياسة الفرنسية وبداءة، فقد حاول أن يمنع سيطرة آل هاسبورج على أوروبا، ولكنه فى النهاية ترك ميراثا للقرنين التاليين اغرى خلفائه لكى يضعوا الأولوية لفرنسا فى أوروبا . غير أنه من فشل هذه الطموحات الفرنسية، نشأ نظام توازن القوى أولا، كحقيقة من حقائق الحياة، ثم كنظام لتنظيم العلاقات الدولية. وكان ريشيليو قد وضع المصلحة القومية الفرنسية فوق كل الأهداف الدينية، ولم تمنعه مرتبته ووضعه ككاردينال من أن يرى محاولة آل هاسبورج لإعادة تأسيس العقيدة الكاثوليكية كتهديد جيوبوليتيكى لأمن فرنسا، ولم يكن هذا بالنسبة له عملا دينيا ، ولكنه مناورة سياسية من النمسا؛ لتحقيق السيطرة فى وسط أوروبا ومن ثم خفض مكانة فرنسا إلى المرتبة الثانية.

والواقع أن نجاح سياسة الـ RAISON D'ETAT كان يعتمد فوق كل شىء على القدرة على تقييم علاقات القوى، وإن كان تحديد حدود القوة يتطلب مزيجا من الخبرة والسيطرة ، والتكييف الدائم مع الظروف، وفى الممارسة والتطبيق، فقد ثبت أنه من الصعوبة البالغة ، العمل بشكل واقعى، ففى الوقت الذى يجب أن يكون توازن القوى محسوبا بكل دقة ، على المستوى النظرى، قد ثبت أنه، فى التطبيق ، من الصعوبة البالغة صياغته بشكل واقعى، بل ما هو أكثر تعقيدا تحقيق التناسق بين حسابات المرء وبين حسابات الدول الأخرى والتى هى الشرط الأول لعمل توازن القوى، وتحقيق حالة التوافق حول طبيعة التوازن أى بتأثير عادة الصراعات من فترة لأخرى. وبالنسبة لريشيليو فإنه لم

يكن لديه أى شك على قدرته على أن يواجه هذا التحدى، كما كان فى إمكانه أن يقيم وبدقة رياضية تقريبا العلاقة بين الوسائل والأهداف. وقد كتب فى شهادته السياسية: «أن المنطق يتطلب أن يكون ثمة تناسبا رياضيا بين الوضع المطلوب تأييده والقوة المطلوبة لهذا التأييد».

لقد جعل القدر من ريشيليو أميرا للكنيسة، ووضعت قناعاته الفكرية فى صحبة عقلانيين من أمثال ديكارت، وسينوزا، الذين تصورا أن العقل الإنسانى، يمكن تخطيطه علميا، ومكنته الفرصة أن يحول النظام الدولى إلى مصالح أمته، فقد كان يمتلك إدراكا عميقا لأهدافه، ولكن أفكاره لم تكن لتسود، إن لم يكن قادرا على أن يوجه تكتيكاته نحو أهداف استراتيجية. وإزاء من انتقده بأنه يضحى بالقيم الدينية والأخلاقية، فقد حول ريشيليو حججهم، وجعلهم يبدون وكأن أفكارهم هى التى فى أزمة وخطر، فما دامت فرنسا هى أكثر القوى الأوروبية الكاثوليكية نقاء أخلاقيا، فإن ريشيليو بخدمته لمصالح فرنسا، فإنه كان يخدم أيضا مصالح العقيدة الكاثوليكية وإزاء نقاد آخرين اتهموه بالتلاعب بالعقيدة مثلما فعل معلمه ميكيافللى حيث شرح العقيدة وطبقها وفقا لخدمته ومخططه، ورغم ان ريشيليو كان حقا كما وصفه نقاده فى استخدامه للدين إلا أنه كان يرد عليهم بأنه، وكما فعل ميكيافللي، كان مجرد محلل للعالم كما هو، ومثل ميكيافللي فربما كان يفضل عالما من الأحاسيس الأخلاقية الأكثر تهذيبا، ولكنه كان مقتنعا بأن التاريخ سوف يحكم عليه كرجل دولة وبمدى حسن استخدامه للظروف والعوامل المتاحة.

والحقيقة ، وباعتبار أن رجل الدولة إنما يختبر وفقا للأهداف التى وضعها لنفسه، فإن ريشيليو يجب أن يذكر كأحد الشخصيات الرئيسية التى وضعت بذور التطور فى التاريخ الدبلوماسى الحديث، ولكنه قد خلف وراءه عالما يختلف بشكل جذرى عن ذلك الذى وجده وصاغ السياسة التى سوف تتبعها فرنسا للقرون الثلاثة التالية، ولمائتى عام بعده،كانت فرنسا بالفعل أكثر الدول نفوذا وأوروبا، وظلت عاملا رئيسيا فى السياسة الدولية حتى هذا اليوم، وقليلا من رجال الدولة فى أى دولة، يستطيعون أن ينتزعوا إنجازا مشابها..

دبلوماسية مؤتمر فيينا: THE CONCERT OF EUROPE

فى الوقت الذى كان فيه نابليون يتحمل ويعانى فى منفاه الأول فى ألبا، كان المنتصرون فى الحرب النابليونية يجتمعون فى فيينا فى سبتمبر عام ١٨١٤ للتخطيط لعالم

ما بعد الحرب، وقد استمر مؤتمر فيينا فى الاجتماع خلال فترة هروب نابليون من آلبا وهزيمته النهائية فى واترلو، كما أصبحت الحاجة إلى إعادة بناء النظام الدولى أكثر إلحاحا.

فى هذه الفترة، كان دبلوماسييها العظام هم: الامير مترنيخ، الامير فون هاردنبرج، تاليران الفرنسى، لورد CASTLEREGH وزير خارجية بريطانيا العظمى . وقد انجز هؤلاء الدبلوماسيون الخمسة العظام ما شرعوا فى تحقيقه إذ بعد مؤتمرهم مرت أوروبا بأطول فترة سلام عرفتها إذ لم تجرى حرب على الإطلاق بين القوى العظمى لمدة أربعين عاما، وبعد حرب القرم لعام ١٨٥٤ ، لم تشهد أوروبا حربا عاما لستين عاما أخرى، ومن المفارقات، أن هذا النظام الدولى، الذى أقيم وبشكل واضح باسم توازن القوى أكثر من أى نظام سبقه، قد اعتمد بشكل أقل على القوة للإبقاء عليه، وقد حدثت هذه الحالة الفريدة جزئيا لأن التوازن قد صُمم بشكل جيد وبشكل لم يكن من الممكن الإطاحة به إلا من خلال جهد يصعب حشده، أما أكثر الأسباب أهمية أن دول القارة قد جمعها بشكل وثيق إحساس بالقيم المشتركة، وبحيث أن التوازن لم يكن ماديا فقط وإنما إخلاقيا كذلك. وهكذا كانت القوة والعدالة JUSTICE AND POWER فى حالة تناسق جوهرى. وقد حقق توازن القوى فرص استخدام القوة، وحقق الإحساس المشترك بالقيم الرغبة فى استخدام القوة، وبدا واضحا أن النظام الدولى الذى لن يعتبر عادلا سوف يتعرض للتحدى آجلا أو عاجلا. ولكن كيف يتصور الناس عدالة نظام دولى ما؟ إن ذلك سوف يتحدد بدرجة كبيرة بمؤسساته الداخلية ، وكذلك بالحكم على قضايا واتجاهات سياساته الخارجية. وقد يثير ذلك عددا من التشابهات والاختلافات بين مترنيخ وبين ويلسون من حيث مفهوم وفكرة استناد النظام الدولى على العدالة. ففى الوقت الذى تشابهت فيه مواقفهم من أن طبيعة المؤسسات الداخلية تحدد سلوك الدولة دوليا، إلا أن مترنيخ كان يعتقد فى ذلك على أساس مجموعة مقدمات مختلفة تماما. فبينما اعتقد ويلسون أن الديموقراطيات محبة للسلام ومعقولة بطبيعتها، فإن مترنيخ اعتبر أنه لا يمكن التنبوء بها. وباعتبار ما رآه من المعاناة التى ألحقتها فرنسا الجمهورية بأوروبا ، فقد طابق مترنيخ بين السلام وبين الحكم القائم على الشرعية، وتصور أن الحكام المتوجون والأسر الحاكمة القديمة، إن لم تكن تحافظ على السلام فعلى الأقل تحافظ على بناء الأساس للعلاقات الدولية وبشكل يجعل من الشرعية الدعامة التى تجمع النظام الدولى

وهكذا فإن الخلاف بين فهم كلا من مترنيخ وويلسون للعدالة الداخلية والنظام الدولى لم يعد مهما فى ذاته فقط، وإنما لفهم وجهات النظر المتعارضة لأمريكا وأوروبا . فقد شن

ويلسون حملة لمباديء ظن أنها ثورية وجديدة، فبينما حاول مترنيخ ان يؤسس قيما اعتقد أنها قديمة، وويلسون الذى كان يحكم دولة خلقت لكى تجعل الإنسان حرا، اقتنع بأن القيم الديموقراطية يمكن أن تسد فى مؤسسات عالمية جديدة تماما، أما مترنيخ الذى يمثل بلدا قديما تطورت مؤسساته تدريجيا وبشكل غير مرئى غالبا، فإنه لم يعتقد أن الحقوق يمكن أن تخلق بالتشريع، فالحقوق فى نظره تتأسس وببساطة فى طبيعية الأشياء، وسواء تأكدت بالتوازن أو المؤسسات فتلك اعتبارات فنية فى جوهرها وليس لها صلة بتحقيق الحرية.

وفى مرحلة مابعد مؤتمر فيينا، لعب مترنيخ دورا حاسما فى إدارة النظام الدولى، وتفسير احتياجات التحالف المقدس. وقد أجبر مترنيخ على القيام بهذا الدور لأن النمسا كانت الطريق المباشر لكل عاصفة، ولأن مؤسساتها الداخلية كانت أقل توافقا مع الاتجاهات الليبرالية للقرن. ولأن مترنيخ كان يدرك الأخطار التى تتعرض لها النمسا من جانب ألمانيا وروسيا وإنها سوف تستهلك نفسها فى أى صراع معهما، لذلك كانت سياسته تفادى تحمل عبء المواجهة، وقد مكنت المهارة الاستثنائية لدبلوماسية مترنيخ من ترجمة الحقائق الدبلوماسية المألوفة إلى مبادىء فعالة للسياسة الخارجية، كما تمكن من إقناع حليفتى النمسا الوثيقتين، والتى كانت كلا منهما تمثل تهديدا جيوبولتيكيا للامبراطورية النمساوية، إن الخطر الأيديولجى الذي تعرضه الثورة يرجح فى أهميته وخطورته الفرص الاستراتيجية التى تتيحها، وهكذا فإن النمسا التى كانت تبدو على سرير الموت بعد انقضاض نابليون قد حصلت على فرصة جديدة للحياة من خلال النظام الذى أقامه مترنيخ، من أن تعيش مائه عام أخرى. إن مترنيخ الذى كان نتاجا عقلانيا لعصرالتنوير، وجد نفسه مدفوعا إلى قتال ثورى غريب عن مزاجه، وإلى أن يصبح الوزير الأقوى لدولة تحت الحصار والتى لا تستطيع ـ تغيير بنيتها الأساسية. وقد كانت رصانة الروح واعتدال الهدف هو أسلوب مترنيخ:

SOBRIETY OF SPIRIT AND MODERATION OF OPGECTIVE وكان «يقول إننا نهتم بشكل أقل بالافكار المجردة،ونقبل الأشياء كما هى، ونحاول لاقصى قدرتنا أن نحمى أنفسنا من الأوهام حول الواقع» وكان يقول «إن عبارات مثل الدفاع عن المدنية، والتى بالفحص الدقيق إنما تتبدد فى الهواء، لا يمكن أن تحقق شيئا ملموسا.» بمثل هذه الاتجاهات كان مترنيخ يجاهد لكى يتفادى أن تكتسحه العاطفة التى تفرضها اللحظة،ولهذا كان الاعتدال هو فضيلته الأولى وفلسفته كما كانت ضرورة عملية. وفى

تعلميات لسفير نمساوى كتب يقول إن تصفية ELIMINATION ادعاءات الآخرين هو أكثر أهمية من أن تضغط وتفرض مطالبنا، وسوف نحصل على الكثير كلما طالبنا بالقليل.. وكلما كان ذلك ممكنا» فقد حاول أن يهدىء من غلواء مشروعات قيصر روسيا الهجومية وشغله بمشاورات مستهلكة للوقت، وبحصره فيما يمكن أن يتحقق حوله توافق أوروبى فى الآراء. وهكذا مكنت براعة وحذق مترنيخ بلاده من أن تسيطر على مجرى الاحداث لجيل كامل بتحويل روسيا ـ القوة التى كان يخشاها ـ إلى شريك على أساس من وحدة المصالح المحافظة، وبريطانيا التى كان يثق فيها، إلى ملاذ أخير لمقاومة التحديات للتوازن القوى.

كاسترله CASTLEREGH ، كانينج CANNING ، بالمرستون:

وينتقل كيسنجر إلى بحث أدوار ومذاهب شخصيات دبلوماسية بريطانية ثلاث وتصورهم للمصلحة البريطانية. ثم يعرج على شخصيات كان لهما دورا ثوريا ليس فقط فى سياسة دبلوماسية بلدهما وإنما فى السياسة والدبلوماسية الأوروبية ، ونعنى بهما نابليون الثالث وبسمارك.

رغم أن خلفاء الدبلوماسى والمفاوض البريطانى كاسترلة لم يفهموا القارة جيدا كما فهمها، إلا أنهم كان لديهم سيطرة وفهما أكثر لما يمثل المصلحة البريطانية القومية الجوهرية، وقد أتبعوا وطبقوا هذا الفهم بمهارة استثنائية وإصرار . ولم يضع كانينج الذى خلف كاسترله مباشرة وقتا فى تصفية كل الروابط الباقية والتى حافظ من خلالها كاسترله على نفوذه على النظام المؤتمر الأوروبى، وبعد تولية وزارة الخارجية لم يترك أى شك إن مبدأه الموجه هو المصلحة القومية والتى لم تكن تتفق من وجهة نظره مع الارتباطات البريطانية فى أوروبا: «إن ارتباطنا الحميم بنظام أوروبا لا يعنى أننا مدعوون لأن نورط أنفسنا فى كل مناسبة ، ونشاط متطفل فى مشاغل الأمم التى تحيط بنا. وبعبارات أخرى، فإن بريطانيا العظمى سوف تحتفظ بحقها فى أن تكون لها طريقها الخاص وفقا لكل حالة وخصائصها ، يقودها فى ذلك فقط مصلحتها القومية.»

وقد حدد بالمرستون المفهوم البريطانى للمصلحة القومية بقولهحين يسألنى الناس عما يسمى بالمصلحة القومية فإن الإجابة الوحيدة أننا نعنى أننا نفعل ما يبدو الأفضل فى كل مناسبة وكل حدث حين حدوثه ، جاعلين من مصلحة بلدنا مبدأنا الموجه مضيفا عبارته الشهيرة ليس لدينا حلفاء أبديين ولا أعداء دائمين: WE HAVE NO ETERNABLE ALLIES AND NO PERMMANENT ENEMIES «إن مصالحنا أبدية وخالدة ومن

واجبنا أن نتبعها». وهذا فى الواقع تكرار المعنى أن بريطانيا العظمى ليس لديها استراتيجية رسمية لأن قادتها يفهمون المصلحة الوطنية لبريطانيا بشكل جيد وعميق، وبشكل يجعلهم يتصرفون بصورة تلقائية وفى كل موقف حين ينشأ، واثقين أن جمهورهم سوف يؤيدهم.

ثوريان : نابليون الثالث، و بسمارك.

أنتج انهيار نظام مترنيخ فى أعقاب حرب القرم ما يقارب حقبتين من الصراع، ومن وسط الغليان ، بزغ توازن جديد للقوى فى أوروبا. فقد خسرت فرنسا، التى شاركت فى عدد من حروب هذه الفترة، مركزها البارز لألمانيا، وما هو أكثر أهمية، فإن الضوابط الأخلاقية لنظام مترنيخ قد اختفت. وقد أصبح يرمز على هذا الغليان باستخدام عبارة تنم عن توازن غير مضبوط وغير متحكم فيه للقوى، وبعبارة: REAL POLITIK التى حلت محل التعبير الفرنسى: RAISON D'ETAT دون تقديم تفسير محدد لها.

وقد كان هذا النظام الأوروبى الجديد من صنع شخصيتين لم يكن من المحتمل ان يتعاونا وأصبحا بعد ذلك بالفعل خصمين لدودين: الإمبراطور نابليون الثالث، واوتوفون بسمارك. وقد تجاهل الرجلان معتقدات مترنيخ القديمة والتى تقول أنه فى صالح الاستقرار فإنه يجب الحفاظ على الحكام المتوجون لدول أوروبا، وان الحركات الوطنية والليبرالية يجب أن تكبت، وأنه ـ فوق كل شىء فإن العلاقات بين الأمم يجب أن تتقرر بالإجماع بين حكام يتشابهون ويلتقون فى الفكر، وعلى هذا أقاموا سياستهم وفقا لـ REAL POLITIK وهى السياسة التى ترى أن العلاقات بين الدول انما تتحدد بالقوة الصرفة RAW POWER وأن الأقوى هو الذى سيسود.

وكان نابليون الثالث، ابن اخت نابليون الأول الذى مزق أوروبا، كان فى شبابه عضوا فى الجمعيات الإيطالية السرية التى كانت تحارب ضد النمسا وسيطرتها فى إيطاليا، وحين انتخب رئيسا عام ١٨٤٨ ، فإن نابليون، ونتيجة انقلاب، قد أعلن نفسه إمبراطورا عام ١٨٥٢ . أما بسمارك، فقد كان سليل عائلة بروسية بارزة، ومعارضة عنيفا للثورة الليبرالية لعام ١٨٤٨ فى روسيا، وأصبح رئيسا للوزراء عام ١٨٦٢ لأن الملك المتردد لم يجد طريقا آخر للتغلب على الجمود فى العلاقة مع البرلمان واختلافه معه حول المخصصات العسكرية.

وفيما بينهم استطاع نابليون الثالث وبسمارك أن يحولا تسوية فينا، وكذلك الإحساس بضبط النفس الذى نشأ من الاعتقاد المشترك فى قيم محافظة. والواقع أنه لم يكن من الممكن تصور شخصيتين أكثر تباينا من نابليون الثالث وبسمارك، إلا أن مقتهما لنظام فينا

قد وحد بينهما . وقد كرهه نابليون الثالث لأنه اعتقد أنه صمم لاحتواء فرنسا، ورغم انه لم يكن مصابا بجنون العظمة وطموحات عمه، فإن القائد الغامض شعر أن فرنسا من حقها أن تحصل على مكاسب إقليمية ولا تريد أوروبا موحدة تقف فى طريقها. وأكثر من ذلك، فقد اعتقد أن القومية والليبرالية هى قيم يطابق العالم. بينهما وبين فرنسا. وأن نظام فينا بكبته لهذه القيم انما يكبح جماح طموحه. أما بسمارك، فقد اعتقد أنه إذا كانت بروسيا سوف تحقق مصيرها وتوحد ألمانيا فإن نظام فينا يجب أن يحطم.

وفى نفس الوقت الذى كانا يحتقران فيه النظام القائم، فإن الثوريان قد انتهى بهما الأمر إلى أن يقفا فى قطبين متعارضين تماما فيما يتعلق بإنجازاتهما.

وقد حقق نابليون عكس ما شرع فى تحقيقه. فبتصوره لنفسه كمحطم لتسوية فينا وملهم القومية الأوروبية، فقد جعل الدبلوماسية الأوروبية فى حالة من الغليان لم تكسب منها فرنسا شيئا على المدى الطويل بينما استفادت منه دولا أخرى. أما ميراث بسمارك فقد كان العكس تماما مؤكداً أن قلة من رجال الدولة هم الذين يغيرون مجرى التاريخ، فقبل بسمارك كان من المتوقع أن تتحقق الوحدة الألمانية ومن خلال نوع من حكومة برلمانية دستورية فرضتها ثورة ١٨٤٨ ولكن بعد ذلك بخمس سنوات، كان بسمارك فى طريقه لحل مشكلة الوحدة الألمانية التى أربكت أجيال من الألمان ، ولكنه فعل هذا على أساس القوة الروسية المسيطرة وليس من خلال عملية برلمانية دستورية. وجانب السخريةفى حياة نابليون الثالث هو أنه كان مناسبا للسياسة الداخلية، والتى كانت تثير مللة أساسا، أكثر مما كان مع المغامرات الخارجية والتى كان يفتقر فيها لكلا من الجرأة والبصيرة.

والواقع أن نابليون الثالث قد فعل الكثير لتطور فرنسا، قد جاء بالثورة الصناعية لفرنسا، وشجعته فى ذلك مؤسسات مالية واسعة لعبت دورا حاسما فى تطور فرنسا الاقتصادى، وبنى باريس فى مظهرها الضخم والحديث، ففى بداية القرن ١٩ كانت باريس ما زالت مدينة من مدى العصور الوسطى ذات شوارع ضيقة، وقد زود نابليون مستشاره المقرب البارون هوسمان بالسلطة والميزانية لبناء المدينة الحديثة ذات الطرق الواسعة والمبانى الضخمة والآفاق الواسعة.

أما بسمارك فقد كانت إنجازاته غير متوافقة مع شخصية رجل «الحديد والدم» ، فقد كان يكتب نثرا ذو بساطة غير عادية وجمال، ويحب الشعر، ويدون† صفحات فى مفكرته الخاصة ، ورجل الدول الذى مجد الـ REAL POLITIK كان يمتلك احساسا غير عادى بالتناسب، وقدره على أن يحول القوة إلى أداة لضبط النفس.

ما هى الثورية، إذا كان الجواب على السؤال بلا غموض فإن ثوريين قلائل هم الذين سيجيبون ، ذلك أن الثوريين غالبا ما يبدأون من مركز الضعف، وإذا كانوا قد سادوا فلأن النظام القائم غير قادر على أن يدرك ضعفه وهكذا كان الامر مع بسمارك فقد بدأت حياته خلال ازدهار نظام مترنيخ ومن عالم يتكون من ثلاثة عناصر رئيسية: توازن القوى الأوروبى، توازن ألمانى بين النمسا وبروسيا، ونظام تحالفات قائم على وحدة القيم المحافظة. وعلى مدى جيل بعد تسويات فينا، ظلت التوترات الدولية منخفضة لأن كل الدول الكبيرة تصورت مصلحة فى بقائها المتبادل، وبالتزام حكام روسيا والنمسا وبروسيا بمبادىء كلا منهم.

وهكذا كانت مآسى نابليون الثالث فى طموحاته التى تجاوزت قدراته ، أما مأساة بسمارك، فإن قدراته قد زادت وتعدت قدرة مجتمعه على استيعابها والتجاوب معها. وقد كان الميراث الذى خلفه نابليون الثالث لفرنسا شللا استراتيجيا، إما الميراث الذى تركه بسمارك فقد كان عظمه لم تفهم جيدا.

روسيا ودورها في السياسة الدولية

منذا أن دخلت روسيا الساحة الدولية، أنشأت لنفسها وضعا مسيطرا وبسرعة مدهشة، ففى مؤتمر السلام فى وستفاليا عام ١٦٤٨ ، لم يكن لروسيا أهمية كافية لكى يمثل فيه، ولكن منذ عام ١٧٥٠ أصبحت روسيا مساهما نشطا فى كل الاجتماعات الأوروبية الهامة. وفى منتصف القرن الثامن عشر، كانت روسيا بالفعل تثيرعدم راحه غامضة للمراقبين الغربيين ، وكان التناقض هو أهم الملامح المميزة لروسيا. ورغم أنها كانت دائما فى حرب وتوسع فى كل اتجاه، إلا أنها كانت تعتبر أنها معرضة للتهديد، وكلما أصبحت الإمبراطورية متعددة اللغات والقوميات، كلما شعرت روسيا بأنها معرضة للخطر، جزئيا بسبب حاجتها لأن تعزل القوميات المختلفة عن جيرانهم. ولكى يدعموا حكمهم، والتغلب على التوتر بين سكان الامبراطورية المتعددة، خلق كل حكام روسيا أسطورة التهديد الأجنبى، والتى تحولت إلى نبوءة اخرى من النبوءات التى حققت نفسها SELF Fullfilled PHROPECY عام١٨٦٤ أصبح الأمن مترادفا مع التوسع المستمر.

وللتناقض، فقد كان من الأمور الصحية أنه فى فترة ٢٠٠ عاما الماضية تم المحافظة على توازن القوى الأوروبى فى عدة مناسبات بالجهود والبطولة ، فبدون روسيا، فإن نابليون وهتلر كانا سوف ينجحوان إلى حد كبير فى إقامة امبراطوريات عالمية.

ومثل الامريكيين، فإن الروس ينظرون إلى أنفسهم على أنهم استثناء، ومن ناحية أخرى، فقد حدد أحد الروائين الروس الفارق بين القيم الروسية والغربية بقوله: كل شيء هناك قائم على العلاقات التعاقدية، وكل شيء هنا قائم على العقيدة والإيمان. ومن الواضح أنه بعد الثورة البولشفية، فان الاحساس العاطفى العميق بالرسالة قد انتقل إلى الشيوعية العالمية. ويكمن التناقض فى التاريخ الروسى فى الازدواجية والتضارب بين قوة الدفع التى تحركها الرسالة، وبين الإحساس المتغلغل بعدم الأمن. إن وجهة نظر روسيا الممجدة لنفسها نادرا ما شاركها فيها العالم الخارجى، ورغم الانجازات غير العادية فى الأدب، والموسيقى، فإن روسيا لم تكن أبدا مصدرا للجاذبية الحضارية للشعوب التى سيطرت عليها كمافعلت قوة اخرى فى بعض مستعمراتها. كما لم ينظر إلى الإمبراطورية كنموذج لا من مجتمعات أخرى أو من رعاياها،وقد ظلت روسيا دائما بالنسبة للعالم المحيط بها قوة أساسية، تنطوى على الأسرار، ويكتنفها الغموض، وتجنح إلى التوسع ومن ثم يجب أن تُخشَى وتُحتَوى من خلال التعاون أو الاحتواء.

وكان بنيامين دزرائيلى واحدا من أغرب الشخصيات غير العادية التى ترأست الحكومة البريطانية. وحين علم أنه سوف يرشح لرئاسة الوزارة هلل!» ..لقد تسلقت إلى قمة القطب المنزلق.. »وعلى النقيض، حين دعى خصمه الدائم ويليام جلادستون لكى يخلفه فى نفس العام كتب تأملا مسهبا حول مسئولية السلطة وواجبها المقدس تجاه الله والدعاء «أن يمنحه المولى الثبات المطلوب لكى يؤدى المسئوليات الخطيرة لمنصب رئيس الوزراء». وقد كانت ردود الفعل هذه من جانب الرجلين العظيمين اللذين سيطرا على السياسة البريطانية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر تصور طبيعتهما المتناقضة: دزرائيلى المتطلع للتقدير والثناء، اللامع، الماكر، المتقلب المزاج، الزئبقي، وجلادستون ، الورع، العالم الجاد.

وقد كان خط حياة دزرائيلي غير متوقع. وباعتبار أنه كان روائيا فى شبابه ، فقد كان عضوا فى الأسرة الأدبية أكثر منه صانعا للسياسة، وكان أكثر احتمالا أن ينهى حياته ككاتب متألق ومجادل أكثر من أن يكون أحد الشخصيات السياسية للقرن التاسع عشر الذى سيضع بذور التطور. ومثل بسمارك، اعتقد ذررائيلى فى الرجل العادى وأنه أكثر ميلا للروح والفلسفة المحافظة وكرئيس لحزب المحافظين، طور ذررائيلى شكلا جديدا للإمبريالية مختلفا عن التوسع التجارى الذى مارسته بريطانيا العظمى منذ القرن السابع عشر ، بالنسبة له، لم تكن الامبراطورية ضرورة اقتصادية وإنما ضرورة روحية ومطلب أساسى لعظمة بلده، وكان يقول « .. إن المسألة هى إما أن تصاغ انجلترا على نموذج المبادىء القارية وتلقى فى الوقت

المناسب مصيرها، أو أن تكون بلدا عظيما يستيقظ أبناؤها ويحصلون على مراكز بارزة، وليس فقط احترام بعضهم البعض، وإنما على احترام العالم».

سياسات وساسة ما بعد الحرب الاولى وتحالفاتها:

وينتقل كيسنجر إلى مرحلة آخرى فى تاريخ الدبلوماسية وشخصياتها، وهى مرحلة ما بعد الحرب الأولى فيقول إنه كان على ألمانيا لكى تضمن لنفسها مكانا قياديا وطويل الأجل، أكثر مما تمتعت به قبل الحرب الأولى فى حاجة إلى رجل دولة ذو بصيرة وصبر لكى يخلصها من قيود معاهدة فرساى. وقد بزغ مثل هذا الرجل عام ١٩٢٣ حين أصبح جوستاف سترسمان GUSTAV STRESSMANN وزيرا للخارجية ثم مستشارا، وقد وصُفت مهمته لتجديد قوة ألمانيا بالإنجازFULFILLMENT واعتمدت هذه السياسة من عدم الارتياح الواضح من فرنسا وانجلترا ومن المساحة التى تفصل بين مبادئهم ومواد معاهدة فرساى. وقبل هذه السياسة اعتمدت ألمانيا على المقاومة، وحرب العصابات الدبلوماسية ضد مبادىء المعاهدة. وعلى عكس أسلافه، فقد فهم سترسمان أنه أيا كانت عدم شعبية معاهدة فرساى، وبغض النظر عن كراهيته هو نفسه لها، فإنه فى حاجة إلى المساعدة البريطانية والفرنسية لكى يزيل أكثر موادها إرهاقا لألمانيا.

ومع تغير اسلوب الدبلوماسيين بعد الحرب الأولى، فإن الاتجاه نحو صبغ العلاقات بالطابع الشخصى قد تزايد وحين رحب السياسى والدبلوماسى ووزير الخارجية الفرنسى برياند ARISTIDE BRIAND بألمانيا فى عصبة الأمم، فقد ركز على صفات سترسمان الإنسانية ، ورد سترسمان بنفس المعنى.

وقد كان أوستن شمبرلين سليل أسرة بارزة، وابن جوزيف شمبرلين السياسى اللامع الماكر الزئبقي والمناصر للتحالف مع ألمانيا فى اوائل القرن ، وكان الاخ غير الشقيق لنيفل شمبرلين الذى صنع تسوية ميونيخ ، ومثل أبيه ، فقد امتلك اوستن شمبرلين سلطة ضخمة فى بريطانيا العظمى وحكوماتها الائتلافية ،ولكن ومثل أبيه ايضا، فإنه لم يصل الى المنصب الاعلى، وكان الزعيم الوحيد لحزب المحافظين الذى لم يشغل منصب رئيس الوزراء، وكما وصفته إحدى التعليقات أن أوستين يلعب دائما لعبة، ولكنه دائما ما يخسرها وقال هارولد ماكميلان عنه «إنه محترف جيد ولكن ليس بأسلوب عظيم، لقد كان واضحا ولكن ليس قاطعا، وكان موضع احترام، ولكنه لم يكن أبدا موضع خوف».

وكان إنجاز شمبرلين الكبير هو دوره فى صياغة ميثاق لوكارنو، ولأن شمبرلين كان معروفا بميله لفرنسا وقال مرة «أنه يحب فرنسا مثل ما يحب امرأة »، فإن سترسمان كان يخشى تحالفا فرنسيا بريطانيا، وكان هذا الخوف هو الذى دفع سترسمان أن يشرح فى سياسته التى أدت إلى معاهدة لوكارنو.

أما آرستيدبرياند فقد كان نموذجا للشخصية الكلاسيكية فى الجمهورية الثالثة وقد بدأ حياته فى الجناح اليسارى، وأصبح عنصر ا دائما فى الحكومات الفرنسية المتتالية وكرئيسا للوزراء من وقت لآخر، وكوزير للخارجية مرارا، حيث عمل بهذه الصفة فى ١٤ حكومة، وأدرك مبكرا أن مركز فرنسا النسبي فى مواجهة ألمانيا يتراجع واستخلص إن إعادة التصالح مع المانيا يمثل أفضل أمل لفرنسا فى أمن طويل الأجل. واعتمادا على شخصيته المرحة البهيجة فقد كان يأمل أن يساهم فى تخليص ألمانيا من أكثر مواد معاهدة فرساى إرهاقا ومشقة. وكانت هذه العلاقة والتفاهم المشترك بين برياند وسترسمان هى التى ادت إلى معاهدة لوكارنو سبتمبر عام ١٩٢٦ والتى من خلالها صاغ رجلى الدولة صفقة شاملة تهدف إلى تسوية الحرب إلى الأبد وتعيد بمقتضاها فرنسا مقاطعة سارSAAR بدون الاستفتاء الذى نصت عليه معاهدة فرساى، وأن تنسحب القوات الفرنسية خلال عام من اقليم الراين RHINELAND مثابل ان تدفع ألمانيا تعويضات قدرها ٣٠٠ مليون فرنك فرنسى كتعويض عن مناجم سار. وكان برياند فى هذا يقايض فى الواقع أكثر مواد فرساى إثارة للجدل باستعادة القوة الاقتصادية لفرنسا. وقد أثبتت المعاهدة أن المقايضة لم تكن متساوية بين البلدين فقد كانت مكاسب ألمانيا دائمة ولا رجعة فيها أما فرنسا فقد كانت مكاسبها ذات جانب واحد وعابرة.

تيودرو روزفلت وويدرو ويلسون

كان تيودرو روزفلت محللا عميقا لتوازن القوى، وقد أصر على أن يكون لأمريكا دورا عالميا لأن مصالحها الوطنية تتطلب ذلك، ولأن توازنا للقوى العالمية كان أمرا غير متصورا بالنسبة له دون اشتراك أمريكا، أما بالنسبة لويدرو ويلسون، فإن تصوره لدور أمريكا فى العالم كان أقرب إلى الرسالة MESSEANIC فأمريكا لديها، التزام ليس تجاه توازن القوى، إنما تجاه نشر مبادئها فى العالم، وهذه المبادىء يعتقد أن السلام يتحقق بنشر الديمقراطية، وان الدول يجب أن يحكم عليها بنفس المعايير الأخلاقية التى تحكم بها على الأفراد، وأن قيام نظام دولى للقانون له احترامه إنما يخدم المصلحة الوطنية. وقد تبدو وجهات نظر ويلسون حول الأسس الأخلاقية للسياسة الخارجية غريبة بل ومنافقه للدبلوماسيين الأوروبيين القدامى

والتقليديين. ورغم هذا فإن مبادىء ويلسون قد عاشت فى الوقت الذى تجاوز فيه التاريخ تحفظات معاصريه. وقد كان ويلسون وفكره وراء إنشاء عصبة الأمم ولكى تحفظ السلام من خلال نظام للأمن الجماعى أكثر من نظام التحالفات، ورغم أن ويلسون لم يستطع أن يقنع بلاده بمزاياها، فإن الفكرة قد عاشت وتحققت بعد ذلك فى صورة هيئة الأمم.

دبلوماسية ما بعد الحرب الثانية وشخصياتها:

كان ستالين فى الحقيقة شخصا شاذا ومنحرف السلوك، ولكنه كان فى إدارة العلاقات الدولية على درجة عالية من الواقعية، وكان صبورا وماهرا، وكما كان لا يعرف الصفح ولا سبيل إلى تهدئته وكان باختصار ريشيليو عصره. وفيما هو أكثر من هذه المظاهر السيكلوجيه لشخصية ستالين، كان له جوهر فلسفى جعله غير مفهوم للقادة الغربيين. وبالنسبة للفكر الشيوعي، وبشكل أكثر بالنسبة لستالين، فإنه فى أية مفاوضات أو مساومات ،فإن أى تنازل لا يقدم، إذا ما قام على الإطلاق، إلا إلى الواقع الموضوعى OPJECTIVE REALITY وليس أبدا لمجادلات الدبلوماسيين والمفاوضين المقابلين ، فكل شىء فى العملية الدبلوماسية يتوقف على تقييم علاقات القوى: CORRELATION OF POWER

وقد كان ستالين الأيديولجى العظيم ، يضع فى الحقيقة أن أيديولوجيته فى خدمة الـ REAL POLITIC وبحيث أن شخصيات مثل ريشيليو أو بسمارك لم تكن لتجد صعوبة فى فهم استراتيجية . وكان المتحدث الرئيسى والمنفذ للسياسة الخارجية السوفيتية الجديدة مكسيم ليتينوف MAIM LITINOV مهذبا، ومصقولا متدفقا فى إنجليزيته، وكان يهوديا من أصول بورجوازية ومتزوج من ابنة مؤرخ بريطانى. وهكذا فإن مؤهلاته الحقيقية كانت ترشحه لكى يكون عضوا بارزا فى طبقته أكثر منه رجلا له مستقبل فى الدبلوماسية السوفيتية، ولكن تحت قيادته الدبلوماسية السوفيتية، انضم الاتحاد السوفيتى إلى عصبة الأمم، وأصبح أكثر مناداة ومناصرة للداعين للأمن الجماعى.

فرانكلين روزفلت: FRANKLIN DELAN ROOSEVELT

كان فرانكلين روزفلت طرازا.. من الشخصيات التى ينطبق عليهم القول بأن كل الشخصيات العظمية تسير دائما وحيده. وALL GREAT LEADERS WALK ALONE وتتبع خصائصهم المميزة من قدرتهم على تمييز وادراك التحديات التى لم تكن واضحة بعد لمعاصريهم وهكذا، فقد قاد روزفلت شعبا انعزاليا إلى حرب بين بلدين كانت صراعاتهم فى وقت قريب فقط تبدو إلى حد كبير غير متفقة مع القيم الأمريكية وليس لها صلة بالأمن الأمريكى.

وباستنشاء إبراهام لينكولين، فإن رئيسا أمريكيا لم يحدث هذا الامرالحاسم فى التاريخ الامريكى، وقد اقسم لينكولين قسم الولاء فى قت من عدم اليقين القومى وفى وقت من اهتزاز الثقة الامريكية بشكل كبير فى قدرة العالم الجديد المطلقة على التقدم والتغلب على الركود الكبير GREAT DEPRESSION كما كانت الديمقراطيات تبدو كحكومات غير ديمقراطية تترنح واليسار يكتسب أرضا جديدة.

وكان روزفلت وهو الزعيم المتحمس هو الذى استخدم جاذبيته لكى يحافظ على تباعده وتحفظه وكان مزيجا غامضا من المضارب السياسى ذو البصيرة وبعد النظر. POLITICAL MANIPULATION AND VISIO NARY. وكان يحكم بالغريزة أكثر منه بالتحليل، وأثار مشاعر وعواطف متضاربة بشكل كبير، وكما لخص ايشيا برلين JSAIAH BERLIN شخصيته ، فقد كان لديه مظاهر قصور خطيرة فى شخصيته جمعت ما بين عدم التمحيص UNSCRUPULOUSNESS والقسوة والسخرية، ومع هذا وكما استخلص برلين فى النهاية، فقد تغذيت على هذه الخصائص خصائص روزفلت الإيجابية، وكما كان ما جذب أقرانه إليه هى صفاته الموازنة COUN TERVALLING والتى عوضت بشكل كبير سلبياته، فقد كان يمتلك آفاقا سياسية واسعة ، وسعة فى الخيال وفهما للعصر الذى يعيش فيه واتجاه القوى العظمى الجديدة وعملها فى القرن العشرين. وكان هذا هو الرئيس الأمريكى الذى دفع بأمريكا إلى دور قيادى عالمى ولبيئة أصبحت فيها أسئلة الحرب والسلام والتقدم والركود حول العالم تعتمد على رؤيته والتزامه.

وكان روزفلت يسبق شعبه بكثير من إدراك أن انتصارا لهتلر سوف يشل الأمن الأمريكى، ولكنه كان مع شعبه فى رفضه العالم التقليدى للدبلوماسية الأوروبية، فحين أصر أن نصرا نازيا سوف يهدد أمريكا لم يكن يعنى أن يجند أمريكا لصالح استعادة توازن القوى الأوروبى أما هدف الحرب عنده فكان إزالة هتلر كعقبة أمام نظام دولى يقوم على التعاون والتناسق لا على التوازن، وكان السلام عنده من الممكن المحافظة عليه من خلال نظام الأمن الجماعى وأنه يمكن تدعيمه بالثقة المتبادلة واليقظة.

وبعد انكسار الجهد الحربى الألمانى بعد معركة ليننجراد الضارية، أصبح فى إمكان روزفلت، ومعه حليفا الحرب، تشرشل وستالين، أن يشرعوا فى التفكير، فى صياغة النظام الدولى الجديد، وأن يحاول كلا منهما صياغته على مثاله وكما يريده فى ضوء الخبرة التاريخية لأمته. فبينما تصور روزفلت نظام ما بعد الحرب أن يشكل المنتصرون الثلاث، مع الصين، مجلس مديرين للعالم ضد أى شرير جديد محتمل ، وهى النظرة التى أصبحت تعرف برجال

البوليس الأربعة، فإن تشرشل أراد أن يعيد بناء نظام توازن القوة التقليدى فى أوروبا وهو ما كان يعنى إعادة بناء بريطانيا وفرنسا وحتى المانيا المنهزمة حتى يمكنهم، مع الولايات المتحدة، أن يوازنوا ضخامة القوة الروسية فى الشرق، أما ستالين ، فإن اسلوبه قد عكس كلا من الأيديولوجية الشيوعية والسياسية الخارجية الروسية التقليدية، وقد كافح لكى يحقق ربحا عاجلا للنصر الذى حققه بمد النفوذ الروسى إلى شرق أوربا، وأن يحول البلدين التى حررها الجيش الأحمر. إلى مناطق عازلة ضد أى عدوان ألمانى فى المستقبل.

مفاهيم الوحدة الأوروبية، الحرب الباردة وشخصياتها: ماكميلان، ديجول، ايزنهاور، كينيدي

ويتحول كيسنجر إلى مرحلة متقدمة فى تاريخ الدبلوماسية المعاصرة وهى مرحلة الحرب الباردة، ويركز فيها على مفاهيم الوحدة الأوروبية والشخصيات الأوروبية والأمريكية فيها، فيعتبر أنه فى أعقاب أزمة برلين عام ١٩٥٨ ، كان على ماكميلان، وديجول، وأيزنهاور، وكينيدى، أن يصالحوا وجهات نظرهم المتصادمة حول طبيعة تحالفهم، وحول دور الأسلحة النووية ومستقبل أوروبا.

وكان ماكميلان هو أول رئيس وزراء بريطانى يواجه بشكل واضح الواقع المؤلم إن بلاده لم تعد بعد قوة عالمية. وقد تعامل تشرشل مع أمريكا والاتحاد السوفيتى على قدم المساواة، وكان تشرشل رغم أنه كان المتحدث باسم قوة كبرى وإن لم تكن بعد فى الصف الأول، إلا أنه رغم هذا كان قادرا على التأثير فى حسابات الآخرين. وخلال أزمة السويس كان إيدن ما زال يمارس دور رئيس حكومة مازال لديها ذاتية كبيرة كقوة عظمى وقدره على العمل المنفرد. غير انه حين واجه ماكميلان أزمة برلين، فإن وهم أن بريطانيا العظمى بذاتها لديها القدرة على تغيير الحسابات الاستراتيجية للقوى العظمى الأخرى، لم يعد من الممكن الدفاع عنه أو استمراره.

وقد كان ماكميلان المصقول ذو الشك الراقى ELEGANT SKEPITIC آخر المحافظين القدامى، وكان نتاج العصر الإدواردى حين كانت بريطانيا العظمى القوة العالمية البارزة والعلم البريطانى يحلق فوق كل ركن من العالم تقريبا، ورغم أنه كان يمتلك إحساسا بالدعابة، فقد كان لديه إيضا سوداوية نبعت من كونه مجبرا على أن يشارك فى اضمحلال انجلترا.

وكانت أهم اهتمامات ماكميلان رغم كارثة السويس ظلت هى رعايةالعلاقة الخاصة مع الولايات المتحدة. ذلك أنه منذ بداية الحرب الثانية كانت القوتان تربطهما الضرورات المتبادلة حتى ولو كانت هذه الضرورات تستقطر من خلال خبرات تاريخيةمختلفة تماما. وكانت

العوامل الهامة لصياغة رابطة قوية من الأمن قدره بريطانيا العظمى الاستثنائية على التكيف مع الظروف المتغيرة، وقد تمكن القادة البريطانيين، من كلا الحزبين، من جعل أنفسهم كشيء لا يمكن للرؤساء الأمريكيين الاستغناء عنه، وأصبح مستشاريهم ينظرون إلى مشاوراتهم مع لندن كفضل يضفونه على حليف ضعيف، ولكن التشاور معهم كان أمرا حيويا لتكوين حكم سليم على الأمور. والواقع أن البريطانيين لم يشاركوا الأمريكيين أبدا وجهة نظرهم حول كمال الإنسان ولم يعتقدوا فى المواقف الأخلاقية المطلقة، وفى ضوء قلقهم كان القادة البريطانيين من أتباع هوبز فى توقعهم أسوأ شيء من الإنسان فإنهم نادوا ما شعروا بالإحباط:

EXPECTING THE WORSE FROM THE MAN, THEY RARELY FIND THEMSE VES DISSAPPOINTED

وفى السياسة الخارجية كانت بريطانيا دائما تعمل وفقا لمبدأ الذاتية الأخلاقية، فما هو خير لبريطانيا العظمى كان يعتبر خيرا لبقية العالم. ولتنفيذ هذا المفهوم، كان يتطلب قدرا كبيرا من الثقة بالنفس إن لم يكن إحساسا بالتفوق، وحين ذكر دبلوماسى فرنسى فى القرن ١٩ لرئيس الوزراء بالمرستون أن فرنسا أصبحت معتادة أن يسحب بالمرستون دائما كارتا رابحا فى اللحظة الأخيرة من كم قميصه إجابة السياسى البريطانى الجرىء، إن الله هو الذى وضع الكروت هناك. وفى ظل ماكميلان، أكملت بريطانيا العظمى التحول من القوة إلى النفوذ ولم ينازع أبدا حول نقطة فلسفية أو نظرية،ونادرا ما تحدى بشكل علنى سياسة أمريكية أساسية، وقد تنازل بإرادته عن مركز الأحداث لواشنطون فى الوقت الذى حاول فيه أن يشكل الدراما من خلف الستار وفى الوقت الذى تصرف فيه ديجول بشكل جامح لكى يجعل تجاهله صعبا، دفع فيه ماكميلان الولايات المتحدة أن تنشد وجهات نظر بريطانيا وبشكل يجعل تجاهلها أمرا مزعجا.

ومنذ نهاية الحرب الثانية والولايات المتحدة تشرف على شئون العالم بشكل لم يتح لأمة من قبل، ورغم أنها لا تمثل إلا جزء صغيرا من سكان العالم إلا أنها كانت تنتج ٣/١ سلعه وخدماته، وتدعمه بفارق ضخم من التكنولوجية النووية، ولذلك فقد انتشرت واستمتعت بفارق ضخم من التفوق على أى منافسة أو مجموعة من المنافسين يمكن تصورهم. ولعدة عصورٍ فإن أوضاع الوفرة التى تصل إلى حد التخمة جعلت أمريكا وقادتها يتجاهلون اتجاهات ووجهات نظر أوروبا المدمرة والعاجزة مؤقتا مقارنة بسلوك أوروبا حين كانت تسيطر على شئون العالم لمدة قرنين. وقد فشلوا فى أن يتذكروا دينامية أوروبا التى أطلقت الثورة الفرنسية والفلسفة السياسية التى أنتجت مفهوم السيادة القومية، والنموذج الاوروبى للدبلوماسية

والذى أدار نظاما معقدا من توازن القوى لمدة ثلاثة قرون. ولكن مع استعادة أوروبا لقوتها ، وبمساعدة أمريكية لم يكن من الممكن الاستغناء عنها، كانت بعض أنماط دبلوماسيتها التقليدية كفيلة بأن تتكرر وخاصة فى فرنسا وحيث نشأ فن أدارة شئون الدولة فى ظل ريشيليو.

ولم يشعر بالحاجة لأن تستعيد أوروبا نفسها وتمارس دبلوماسيتها أكثر من شارل ديجول. وفى الستينيات وخلال قمة جدله وخلافاته مع الولايات المتحدة، أصبح من قبيل الموضة اتهام الرئيس الفرنسي، أنه يعانى من أوهام العظمة، بينما كانت مشكلته هى العكس تماما: كيف يمكن إعادة الهوية لبلد يغمره الإحساس بالفشل والخطر . وقلة من الدول هى التى اختبرت المحن التى مرت بفرنسا بعد أن فقدت معظم شبابها فى الحرب الأولى والذين عاشوا بعد هذه الكارثة تحققوا أن فرنسا لن تستطيع أن تتغلب على محنة أخرى كهذه ، وفى ضوء هذا، أصبحت الحرب الثانية كابوسا تحقق جاعلة من انهيار فرنسا عام ١٩٤٠ كارثة سيكولوجية وعسكرية. وفى هذا الوقت الذى خرجت فيه من الحرب كأحد المنتصرين فإن القادة الفرنسيين كان يعرفون جيدا أن بلادهم قد أنقذت بشكل كبير من خلال جهود الآخرين.

ولأن واشنطون قد أخذت توافق المصالح بين أعضاء التحالف الغربى كشيء مسلم به، قد اعتبرت أن مجرد التشاور سوف يعالج كل اختلاف. ومن وجهة النظر الأمريكية، كان التحالف الغربى يشبه شركة عامة، يعكس النفوذ فيها نصيب كل فرد النسبى فى الملكية ويجب أن يحسب بنسبة مساهمة كل أمة المادى فى الجهد المشترك. ولم يكن هناك فى تاريخ ممارسة فرنسا الطويل للدبلوماسية ما يتفق مع هذا المفهوم أو يؤدى إلى هذه النتيجة. منذ ريشيليو، فقد صدرت مبادرات فرنسا بشكل دائم من حساب المخاطر والمكاسب، وكنتاج لهذا التقليد كان دى جول أقل اهتماما بطبيعة الجهاز الاستشارى منه بالخيارات المتراكمة لاحتمالات حدوث اختلافات، وقد اعتقد ديجول أن هذه الخيارات سوف تحدد مواقف المراكز النسبية ، وبالنسبة له، فإن العلاقات السلمية بين الأمم، تعتمد على حسابات المصلحة، وليس على الإجراءات الرسمية فى تسوية المنازعات،ولم يكن ينظر إلى التناسق كحاله طبيعية ولكن كشيء يجب أن ينتزع من تضارب وصراع المصالح فالإنسان المحدود بطبيعته LIMITED IN HIS NATURE إنما هو لا نهائي فى رغباته INFINITE IN HIS NEEDS وهكذا رأى ديجول العالم مليئا بالقوى المتصارعة المتعارضة، وبالطبع كثيرا ما نجحت الحكمة البشرية فى منع تحول هذه النزاعات إلى صراعات مميتة، غير أن التنافس هو شرط الحياة، وفى التحليل الأخير دائما، فإنه فى التوازن فقط سوف يجد العالم السلام.

وقد شكل تكرس ديجول المخلص للمصلحة الفرنسية الوطنية تباعده وأسلوبه غير المساوم في الدبلوماسية. وفي الوقت الذى كانت القيادة الأمريكية تركز فيه على مبدأ المشاركة PARTNERSHIP كان ديجول يؤكد مسئولية الدول في أن تراعى أمنها الخاص. وحيث أرادت أمريكا أن تخصص جانبا من الهدف العام لكل عضو في التحالف، أعتقد ديجول أن تقسيم العمل هذا سوف يحط من قدر فرنسا ويدمر إحساسها بشخصيتها، وكان يقول: أنه مما لا يمكن التسامح فيه بالنسبة لدولة عظمى إن تترك مصيرها لقرارات وتصرفات دولة أخرى أيا كانت صداقتها، إن الدولة التى تدخل ضمن هذا التكامل تفقد اهتمامها بدفاعها الوطنى مادامت ليست مسئولة عنه.

ولم يكن ديجول معاديا لأمريكا من حيث المبدأ، فقد كان مستعدا للتعاون حيثما، ومن وجهة نظره، تتلاقى المصالح الأمريكية والفرنسية بشكل حقيقى، ولهذا اندهش المسئولون الأمريكيون من التأييد غير المشروط الذى أظهره ديجول خلال أزمة الصواريخ الكوبية.

إن ما كان في فكر ديجول عن أوروبا فهى أوروبا التى تقوم على نفس الخطوط التى أقام بها بسمارك ألمانيا الموحدة، بما يعنى الموحدة على أساس دول تلعب فيها فرنسا دورا مسيطرا وتقوم بنفس الدور الذى كان لبروسيا فى ألمانيا الموحدة.

أما التغير الضخم الذى حدث فى العالم وتحول علاقات القوى فيه إنما يرجع وتم تحت وصاية رجلين كان تعاونهما بعيد الاحتمال، وهما الرئيس الأمريكى رونالد ريجان ـ ١٩٨٠ ـ ١٩٨٨ ـ والزعيم السوفيتي ميخائيل جورباتشوف ـ ١٩٨٥ ـ ١٩٩١ ـ وقد انتخب ريجان رئيسا لأمريكا كرد فعل لفترة بدت فيها أمريكاتتراجع، وجاء بهدف تأكيد الاستثناء والتفرد الأمريكى، أما جورباتشوف، الذى صعد إلى القمة من خلال الصراع الضارى حول سلم السلطة الشيوعية ، فقد كان مصمما كذلك على استعادة القوة والحيوية للواقع والنظام السوفيتى. وكان كلا منهما مؤمنا بالنصر النهائى لجانبه. غير أنه كان هناك فرقا أساسيا بينهما. فقد فهم ريجان الينابيع الرئيسية لمجتمعه، بينما خلال عملية التحول التى بدأها جورباتشوف، فقد فقد الاتصال كلية مع مجتمعه. وبينما اعتمد واستقطر ريجان رصيد المبادرة والثقة بالنفس، عجل جورباتشوف بموت النظام الذى كان يمثله بسعيه لإصلاحه وهى العملية التى ثبت أنه لم يكن قادرا عليها.

ورغم أن معرفة التاريخ هى مفتاح لفهم السياسة الدولية، إلا أن رونالد ريجان ، كما كان الشأن مع ترومان، جاء استثناء من هذه القاعدة، ذلك أن ريجان كان يمتلك ويعكس معرفة ضئيلة بالتاريخ ، فقد قارن مرة بين بسمارك وجورباتشوف، وعندالتحدث إليه لم يكن المرء

يملك إلا أن يتساءل كيف يمكن لهذا الرجل أن يكون رئيسا ليس فقط للولايات المتحدة بل حاكما لولاية. ولهذا فإن ما على المؤرخين أن يوضحوه كيف أن مثل هذا الرجل غير المثقف حكم كاليفورنيا لمدة ثمانية أعوام و أمريكا لفترة مماثلة إلا أنه وبعد كل شئ فإن رئيسا بمثل هذه الضحالة الثقافية قد طور سياسة خاصة على القدر من التماسك والملاءمة

كما كان يملك إحساسا حادا بما يريد تحقيقه، وثقة راسخة فى معتقداته شكلت جوهر السياسة الخارجية لعهده، وأثبتت أن الإحساس بالاتجاه، وقوه الاقتناع بمعتقداته هى التى تشكل المكونات الرئيسية للقيادة:

SENSE OF DIREC (TION, AND THE NOWING OF THE STRENGTH OF ONE'S CONVE NTIONS ARE THE INEGEDIENTS OF LEADERSHIP

وقد كان لديه فهم وادراك اكثر قوة وتأكدا لما يعتمل فى الروح الأمريكية:

HE HAD A MUCH GRASP OF THE WORKINGS OF THE AMERI CAN SOUL

وقد طابق ريجان بين ادارته وبين رفضها لما بدأ يسود المجتمع الأمريكى من عقدة الذنب خاصة بعد حرب فيتنام، ودافع بفخر عن سجل أمريكا باعتبارها أكبر قوة سلام فى العالم اليوم.

ورغم أن انتهاء الحرب الباردة كان فى جوهره انتصار للولايات المتحدة، وإن هذا تم خلال عهد ريجان وإدارته، إلا أن هذا النصر لم يكن بالطبع إنجازا لادارة أمريكية واحدة بقدر ما كان تجمع واحتشاد لجهد أمريكى قوى دام لأربعين عاماً وعبر إدارات ورؤساء أمريكيين من ناحية، ونتيجة لتحجر الفكر والتطبيق الشيوعى من ناحية أخرى. وقد نبعت ظاهرة ريجان ومساهمته من تلاقى سعيد الحظ بين الشخصية والفرصة التى أتيحت لها، وحيث مزج ريجان بين التشدد الأيديولوجى بتجميع الرأى العام الأمريكى وبين المرونة الدبلوماسية والتى لم يكن المحافظون يغفرونها لرئيس آخر، وقد كانت هذه الصيغة هى المطلوبة بالضبط فى فترة كانت أمريكا قد بدأ يتملكها الشك فى نفسها.

أما جوربا تشوف، فإنه للمرة الأولى الذى يتحقق فيه للغرب ما كانوا يتوقعونه بعد مجيئ كل زعيم سوفيتى جديد من بزوغ عصر جديد فى السياسة السوفيتية، فقد كان جوربا تشوف من جيل مختلف عن جيل القادة السوفيت الذين سبقوه والذى حطمت الستالينة روحه. كما كان يفتقد اليد القوية لشخصيات الجهاز الحزبى، وكان على قدر كبير من الذكاء والدماثة وكان يشبه الشخصيات التجريدية للروايات الروسية فى القرن ١٩ التى يجتمع فيها

المحلية والعالمية، والذكاء وعدم التركيز فى بعض الأحيان، كما كان ذا نظرة وإدراك حاد وتبصر ولكن معضلته الرئيسية ظهرت حين بدأت سياسته تعكس التشويش أكثر من الهدف، وفى الوقت الذى كان الغرب فيه يشرع فى ثورته التكنولوجية الثالثة. كان الزعيم السوفيتى الجديد يراقب بلده وهى تنزلق نحو الضعف تكنولوجيا.

النظام العالمي الجديد

ويختتم كيسنجر عمله الضخم فى استعراض تاريخ الدبلوماسية وعصورها منذ القرن السابع عشر، وشخصيتها، بتصوره لمعالم النظام الدولى الجديد ومكانه ودور الولايات المتحدة فيه.

فيقول، لقد تحدث الرئيس الأمريكى جورج بوش، والذ ى تسلم الحكم مع انتهاء الحرب الباردة والنظام الدولى الذى عاصرها، عن النظام العالمى الجديد وكأنه على الأبواب، رغم أنه مازال فى مرحلة الماضى، ولن يتشكل بصورة واضحة ومرئية قبل القرن القادم. وسوف يكون فى جانب منه امتدادا للماضى، وفى جانب له ليس له سابقة، والنظام العالمى الجديد، شأن النظم التى سبقته، سيبزغ كإجابة على أسئلة ثلاثة: ما هى الوحدات الرئيسية للنظام العالمى الجديد، وما هى وسائل تفاعلها، وما هى الأهداف التى سيجرى التفاعل بشأنها ونيابة عنها.

وقد خلقت نهاية الحرب الباردة ما أسماه بعض المراقبين العالم ذا القطب الواحد UNI-POLAR أو العالم ذا القوة الأعظم الواحدة ONE SUPER POWER إن الولايات المتحدة هى بالفعل ليست فى وضع أفضل يمكنها من أن تمول جدول الأعمال العالمى بشكل منفرد وأكثر مما كانت فى بداية الحرب الباردة، ورغم هذا، وبشكل يدعو للسخرية، فإن القوة ومصادرها قد انتشرت بشكل أكثر، وهكذا فإن قدرة أمريكا قد تراجعت ومن المحتمل أن يكون للولايات المتحدة حتى القرن القادم أقوى اقتصاد عالمى، ومع هذا، فإن الثروة سوف تنتشر بشكل أوسع، وكذلك التكنولوجيا وتولد الثروة، وبحيث ستواجه الولايات المتحدة منافسة اقتصادية من نوع لم تختبره خلال الحرب الباردة ومن ثم فإنه فى القرن الواحد والعشرين فإن أمريكا، مثل أمم أخرى، عليها أن تعلم أن تميز بين الضرورة والاختيار، بين الثوابت غير المتغيره للعلاقات الدولية والعناصر التى تخضع لحرية تصرف واختيار رجل الدولة ورشده.

الفصل الرابع

عن الدبلوماسية القديمة والجديدة

اعتمدنا فى هذا الفصل على:

- Horold Niclson,"TheEvolution of Diplomatic Metheds"
- " Diplomacy in AChanging World" Edited By: Kertesz&Fitzsinons.
- ABBA IBAN,"Diplomacy".
- Rbort Moore,"Third World Diplomat IN Dialogue With The First Word".

يعرف مؤرخ الدبلوماسية الشهير هارولد نيكلسون الدبلوماسية القديمةبأنها دبلوماسية المدرسة الفرنسية التى صاغتها نظرية وممارسة ريشيليوRichelieu،وكاليرزCallieres وهى الدبلوماسية التى تبنتها البلدان الأوروبية خلال القرون الثلاثة التى سبقت التحول الكبير الذى حدث عام ١٩١٩ . وينظر نيكلسون إلى هذه الدبلوماسية كأفضل الأساليب لإدارة العلاقات بين دول متمدنة. فقد كانت فى رأيه دبلوماسية كيسة، ووقورة، وتتصف بالاستمرارية والتدرج معا، وتعطى أهمية للمعرفة والخبرة، وتأخذ فى الاعتبار حقائق القوة القائمة، وجعلت من الثقة وحسن النية والوضوح والدقة الصفات الجوهرية لأى مفاوضات سليمة، أما الأخطار والحماقات والجرائم التى تراكمت خلال هذه القرون الثلاثة وأضعفت الثقة فى الدبلوماسية القديمة فإنها فى رأى نيكلسون إذا فحصت بدقة فسنجد أنها تعود للسياسة الخارجية الشريرة وليس لأساليب إدارتها وتنفيذها.

والدبلوماسية القديمة هى التى تولاها الدبلوماسيون المحترفون Professional Diplo-mats لفترة ماقبل الحرب العالمية الأولى، ولسوء الحظ فإن نصيحة هؤلاء الحكماء لم يُلتَفت إليها فى مؤتمرات فيينا وبرلين، ولم تُستثمر خدماتهم فى الوقت الذى تولت فيه ضروب من النفوذ والتأثير البعيدة عن الدبلوماسية زمام الأمور.

وقد كانت الصفة اللصيقة بالدبلوماسية القديمة والمميزة لها هى السرية وخاصة فى المفاوضات الأمر الذى يختلف تماما عن دبلوماسية المؤتمرات العامة Public CONFER-ENCES التى أصبحت ملازمة للدبلوماسية منذ عام ١٩١٩ . فى الدبلوماسية القديمة كان السفراء هم الذين يتولون ويباشرون عملية التفاوض حول عقد معاهدة مع الحكومة المعتمدين لديها، وعلى هذا فقد كان السفير يعرف الساسة الذين سيتفاوض معهم معرفة مباشرة، ويعرف نقاط قوتهم وضعفهم وإمكان الاعتماد عليهم أو العكس، وكان على علم كامل بالمصالح المحلية وبالخبرات والطموحات والشعاب التى كان عليه أن يبحر فيها، وكانت مقابلاته المتكررة مع وزير الخارجية لاتثير الاهتمام لدى الرأى العام باعتبارها عملا روتينيا ، ولذلك كانت مناقشاتهم تظل خاصة وعقلانية وودية، وبطابع سريتها لم يكن هناك خطر من ظهور توقعات عامة حولها خلال مراحل تقدمها، ذلك أن كل المفاوضات تتكون من مراحل ونتائج فإذا أصبحت المراحل موضعا للنقاش العام قبل أن يتم الوصول إلى نتيجة فإن المفاوضات غالبا ماستترنح. فالمفاوضة هى أساسا موضوع للتنازل والتنازل المتبادل، فإذا ماتسرب التنازل المقدم من جانب أمام رأى عام لا يعرف عن التنازل المقابل

والمتوقع، فإن تشويشا كبيرا يمكن أن يحدث وقد ينهى المفاوضات. بالإضافة إلى ماعبر عنه أفضل دبلوماسى محترف لهذا القرن وهو TulesCombon ، إن السفير فى الدبلوماسية القديمة كان يتفاوض وهو متحرر من ضغط الوقت. وتبدو إنجازات الدبلوماسية القديمة فيما حققته مفاوضات فرنسا وروسيا وألمانيا والنمسا وإيطاليا وتحت رئاسة السير إدوارد جراى، حيث استطاعوا أن يصلوا إلى تسوية لأزمة البلقان عام ١٩١٣، وقد كان سفراءهم فى المفاوضات يعكسون خلافات قومية خطرة وحادة، إلا أنهم كانوا يمتلكون الثقة كاملة واستقامة وأمانة وتعقل وحذر ورشد، وكان لديهم مستوى مشترك للسلوك المهنى، وكانوا يرغبون قبل كل شىء فى منع أى إشعال للموقف، وكان الهدف العام للدبلوماسية القديمة التى سادت فى القرن ١٩ هو الاستقرار الأوروبى وليس المساواة العالمية، وقد تحقق هذا الهدف من خلال الاتفاق الأوروبى عام ١٨١٥ الذى حقق لأوروبا مائة عام تقريبا من السلام وكان أبطال هذا الإنجاز هم رجال الدولة ودبلوماسيون مثل بسمارك ومترينخ وكاسترله، وبخلاف حرب القرم فإن القوى الكبرى فى هذا الوقت: انجلترا، فرنسا، بروسيا، روسيا، النمسا، وإيطاليا، لم تشترك فى حرب بينها إلا لمدة ١٨شهرا، فى الوقت الذى شهد القرنان الماضيان ٦٠-٧٠ من الحروب الكبيرة بين القوى الرئيسية. غير أننا يجب أن نلاحظ أن هذه المائة عام من السلام - والتى تثير شجن وحنين الدبلوماسيين والساسة فى الأجيال التالية، قد قامت فى ظروف استثنائية وأساس نتيجة لتوازن القوى، ووجود شبكة من المصالح المتبادلة فى التجارة، كما كان عدد الفاعلين فى المسرح الدولى قلة، وقدم لهم صغر القارة الأوروبية فرصة التفاعل السريع، حيث زادت الألفة بين رجال الدولة والسفراء والتى تجاوزت الحدود القومية. ومع بلاطهم الملكى الذى كان نشطا بشكل خاص فى الدبلوماسية، كون رجال الدولة والدبلوماسيون مجتمعا ارستقرطيا تجاوز القوميات، وكان هذا هو عصرهم الذهبى، وخلق التقدم الاقتصادى مع استمرار السلام سحرا يوتوبيا جعل كاتبا كبيرا مثل فيكتور هوجو يكتب عن «موت الحرب».

غير أنه مع مطلع القرن العشرين بدا أن النظام الدولى سوف يتميز بالاضطراب العنيف لا بالتناسق والاستقرار، وقد أزاحت الحرب الأولى ٤ إمبراطوريات كبرى من القوى السبع التى كانت على المسرح الدولى قبلها. وكان على الدبلوماسية التقليدية فى جوهرها أن تهيئ نفسها وتتكيف مع عصر ثورى جديد وكان التجديد الحاسم فى هذا العصر هو إنهاء

الاحتكار الأوروبى نتيجة لدخول الولايات المتحدة فى المجموعة الصغيرة للأعضاء الكبار فى المجتمع الدبلوماسى. ورغم أن هذا التطور قد بدأ بالاتجاه الانعزالى الذى ساد الولايات المتحدة، وحيث كان هذا الاتحاد يود لو لم يكن للعالم الجديد سياسة خارجية على الإطلاق ابتعادا عن مشاكل أوروبا وصراعاتها وحروبها، وكان شعبها يريد أن يضع التجربة الأوروبية وراء ظهره، وأعلن جون آدمزأن عمل أمريكا مع أوروبا هو التجارة وليس السياسة أو الحرب ، وحتي عام ١٩٠٦ كان للولايات المتحدة ٦ سفارات فى الخارج والباقى مفوضيات. غير أن هذا الاتجاه الانعزالى لم يصمد أمام التطورات التى أرغمت الولايات المتحدة أن تندمج فيها وتصبح هى ودبلوماسيتها من العوامل المؤثرة فى توجيه الحياة والدبلوماسية الدولية إن لم تكن هى العامل الحاسم فيها.

وقد توافق مع هذا التطور بدء تعرض الدبلوماسية القديمة أو التقليدية وأساليبها لهجوم مستمر منذ الحرب العالمية الأولى واستمر هذا الهجوم الذى صحبه تطورات، جذرية فى البيئة الدولية، حتى كادت الدبلوماسية القديمة أن تُنبذ منذ نهاية الحرب الثانية. ويلخص هانز مورجانتو الحجج التى استند عليها الهجوم على الدبلوماسية القديمة فى:

١- فقد اعُتبر أنها مسئولة عن الكوارث السياسية التى حاقت بالبشرية خلال الحقب التى سيطرتَ فيها أساليبها، والمنطق يقول أن الأساليب التى ثبت عدم صحتها يجب أن تستبدل.

٢- أن الدبلوماسية التقليدية إنما تتعارض مع مبادىء الديمقراطية، لذلك كان علي الدبلوماسية أن تكون مفتوحة ومعرضة للفحص فى كل عملياتها.

٣- أن الدبلوماسية التقليدية بشكلياتها غير ذات جدوى ومضيعة للوقت، ومتعارضة بمساوماتها مع المبادىء الأخلاقية.

أما العوامل الحاسمة التى أدت إلى تراجع الدبلوماسية القديمة ونشوء الدبلوماسية الجديدة فكانت نتيجة ثلاثة تطورات رئيسية غيرت من تكوين العائلة الدولية، وطبيعة الاهتمامات الدولية ومن ثم أهداف العملية الدبلوماسية، ثم تكنولوجيا الاتصالات والمعلومات.

فبالنسبة للعامل الأول فقد كان عدد الدول التى تمارس العملية الدبلوماسية وتتركز فيها عند بداية نظام الدولة الحديثة عند منتصف القرن السابع عشر، ١٢ دولة أوروبية،

ومنذ هذا الوقت تضاعف هذا العدد عدة مرات. ففى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر حدث تحول أساسى حيث حصلت الولايات المتحدة ١٥ دولة لاتينية علي الاستقلال الأمر الذى ضاعف من الدول المكونة للمجتمع الدولى واتسعت الساحة الدبلوماسية حيث شملت نصف الكرة الغربى. ثم حدث نمو مفاجىء وإن كان بطيئا فى منتصف القرن ١٩ حين انضمت إلى المجتمع الدولى الصين،واليابان وعدد من دول أمريكا الوسطى وليبيريا، ونما هذا التوسع بشكل أكبر بعد الحرب العالمية الأولى خاصة فى البلقان وجنوب شرق أوروبا والشرق الأوسط حيث بلغ عدد الدول إلى مايقرب من ٦٥ دولة. غير أن العائلة الدولية شهدت أكبر توسع لها نتيجة لموجة الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية حين انضم ٧٥ عضوا جديدا خاصة من العالم العربى، وأفريقيا وآسيا والباسيفيك وحيث وصل عدد الدول التى تتمتع بعضوية الأمم المتحدة ١٨٥ دولة. وبطبيعة الحال نتج عن هذا التوسع فى العائلة الدولية توسع كبير فى الصلات والعلاقات الدبلوماسية، والمفاوضات، والأجهزة الدبلوماسية.

أما العامل الثانى فى نشوء الدبلوماسية الجديدة فقد تمثل في التغير النوعي فى الاهتمامات الوظيفية للدول والمجتمع الدولي، وهو التغيير الذي نجم عن تقلص الحدود بين الدول، والثورة الصناعية وتزايد الاعتماد علي التجارة وتنوعها، والاكتشافات العلمية، والتداخل المتزايد بين الدول في الشئون الثقافية والمالية والاجتماعية، وبدت علي الحكومات أن تتعامل مع نطاق واسع من القضايا والمشكلات، فحيث كانت اهتمامات الدول ومن ثم جهازها الدبلوماسى تنحصر فى القرن ١٩ فى عدد محدود من القضايا مثل قضايا السلام والحرب والاستراتيجية، وحماية المواطنين فى الأراضى الأجنبية، ومشكلات الصيد وحقوق الملاحة والتجارة، وتسليم المجرمين، أما ماعدا هذا فكان يعتبر من قبيل الـ Lowpo-lieics التي إن أثارت الاهتمام فهى تترك للمستويات الوظيفية الأقل.

أما اليوم فقد اتسع نطاق اهتمامات الدولة بشكل أصبح يشمل، إضافه إلى الاهتمامات التقليدية، قضايا مثل الطعام، والطاقة، والمياه والبيئة، والسكان والهجرة، ومقاومة الإرهاب، والسكان، والانتشار النووى، والأمراض.

وقد جاءت ثورة الاتصالات والمعلومات لكى تحدث تغيرا نوعيا في طبيعة وأدوات الدبلوماسية فى ظهور الدبلوماسية الحديثة، فالثورة التكنولوجية فى مجال النقل والاتصالات أصبحت تسمح بإجراء اتصالات طويلة ومشاورات بالبرقيات والفاكس والخط

الساخن الذى يربط الرؤساء خاصة، وأصبح من الممكن عقد مؤتمرات وحوارات عبر الاتصالات السلكية واللاسلكية والأقمار الصناعية، ومكن هذا المتفاوضون وهم على مائدة المفاوضات الاتصال بعواصم بلادهم والحصول على توجيهات صناع القرار في عواصمهم. كما كان لثورة المعلومات وسرعة نقلها عبر الشبكات والقنوات التليفزيونية تأثير حاسم على عمل الدبلوماسى وكمية المتاح له من الأخبار والمعلومات والتقييمات، وجعله فى مركز الأحداث العالمية وهو فى مكتبه، وجعله هذا فى سباق مع الزمن لكى يلاحق هذه الأحداث ولايتخلف عنها.

أما السبب الخامس الرئيسى لظهور الدبلوماسية الحديثة فهو بروز تصور أكثر ديمقراطية للعلاقات الدولية، بحيث كانت إدارة العلاقات الدولية خلال عصر الدبلوماسية القديمة والتقليدية توكل إلى صفوة من الرجال المختارين التى تتفاوض وتقرر سياسات بلادها وعلاقاتها، وهو ما تغير فى ظل نظم الحكم الديمقراطية حيث أصبح الرأي العام ذا تأثير بالغ على صانع السياسة ومنفذها من خلال وسائل الإعلام، والأحزاب والاجتماعات الشعبية والبرلمانات والمظاهرات وصناديق الاقتراع. وهكذا أصبحت الدبلوماسية ذات طابع ديمقراطيDemocratised Diplomacy بحيث أصبحت تسمى أحيانا بالدبلوماسية الشعبية People Diplomacy بما يعنى نفوذ وتأثير الأجهزة الشعبية والتمثيلية على العلاقات الخارجية وإدارتها.

وإذا كانت هذه هى العوامل الرئيسية فى التحول الذى حدث فى الدبلوماسية ونقلها من طبيعتها ومنهجها ومضمونها التقليدى الكلاسيكى إلى الدبلوماسية الجديدة ذات المضمون- والذى إن ظل يحتوى عناصر من مضمون الدبلوماسية القديمة، إلا أنه ازداد اتساعا وتنوعا فى موضوعاتها وغاياتها، كما اختلفت كذلك فى مناهجها وأدواتها، إذا كان الأمر كذلك، فما هى أهم الخصائص التى أصبحت تميز الدبلوماسية الجديدة والمعاصرة؟

لقد أظهرت العوامل التى كانت وراء هذا التحول عددا من خصائص الدبلوماسية الجديدة، فقد أصبحت تعمل مع بيئة دولية أكثر اتساعا وتعددا وتنوعا من التى كانت تعمل فيها الدبلوماسية القديمة، وأصبحت أدواتها أكثر سرعة وحركة بشكل يفوق بمراحل أدوات وحركة الدبلوماسية القديمة، واتسع نطاق القضايا والموضوعات التى تعالجها وينشغل بها الدبلوماسي وتشكل جدول أعماله اليومى، كما أصبحت تعمل فى ضوء

العلانية وتأثير ومتابعة وسائل الإعلام، وكذلك تحت تأثير المؤسسات الديمقراطية ويقظة الرأي العام.

بالإضافة إلى هذه الخصائص المرتبطة بعوامل التغيير التى طرأت على الدبلوماسية، ثمة خصائص أصبحت من المعالم الرئيسية للدبلوماسية المعاصرة. من أهم هذه المعالم أن الدبلوماسية اليوم أصبحت مايمكن تسميته الدبلوماسية الشاملة أو الكاملة Total Dlplo-macy. فلم يعد الدبلوماسى قانعا بممارساته التقليدية من حفلات ومآدب عشاء وغذاء واستقبالات، أو بكتابة التقارير والتحليلات والتنبؤات، إنما أصبح الدبلوماسى اليوم هو الذى يدير وينسق، نطاقا عريضا من النشاطات والاهتمامات العريضة لبلده المعتمد فيه وبحيث يمكن القول أن الدبلوماسى الحديث يجب أن يتوقع أن يعالج كل مظاهر الحياة البشرية إذ أن كل مظهر للوجود البشري أصبح اليوم تقريبا له بعض الأبعاد الدولية. الأمر الذى جعل من الدبلوماسية التى كانت يوما ما عملا بسيطا عملية معقدة ليس فقط نتيجة للعدد المتزايد من المشكلات والقضايا المعقدة والمتشابكة التى تواجه الدول منفردة والمجتمع الدولى، وإنما أيضا بالعدد المتزايد من الدول.

أما المَعلَم الثانى والهام الذى أصبح يميز الدبلوماسية المعاصرة أصبحت تسمى بالدبلوماسية الترابطية Associative Diplomacy ،وهى الصفة التى نجمت عن النمو المستمر فى تكوين المجموعات الإقليمية والدولية Groupings، وهو الاتجاه الذى يقصد به هذه المجموعات أن تشكل علاقات سياسية او اقتصادية أوثق مع دول أخري تربطها بها روابط استراتيجية وسياسية واقتصادية وتجارية. ويبدو هذا الاتجاه واضحا فى توسيع وتعميق مجموعات كانت قائمة مثل السوق الأوروبية المشتركه EEC والتى توسعت لكى يصبح الاتحاد الأوروبى EU وأصبحت تضم اليوم ١٥ عضوا ولم تتسع فى العضوية فقط وإنما كذلك فى طبيعة الروابط بينها بحيث أصبحت تتجه وفقا لمعاهدة ماسترخيت ديسمبر عام ١٩٩١ إلى الوحدة السياسية والنقدية والاقتصادية. وعلى المستوى الآسيوى، نجد رابطة دول جنوب شرقى آسيا الآسيان Association of South East (ASIAN) Nations Asian ومنتدى التعاون الاقتصادى لدول آسيا والباسفيك AsiaPacificEconomic Cooperation (APEC) ثم تجمع الـ NAFTA: الذى يضم الولايات المتحدة، وكندا، والمكسيك.

بالإضافة إلى ظهور تجمعات فرعية Sub-Groupings فى النطاق العربى: مجموعات الدول الخليجية التى تجمعها مجلس التعاون الخليجىGcc ، والدول المغاربية التى يجمعها اتحاد المغرب العربى، وفى النطاق الأفريقى: مجموعة دول غرب أفريقيا ECAWAS، مجموعة الجنوب الأفريقى SADAC، وفي الإطار اللاتينى مجموعة الميكروسول Micro-soleوهى المجموعات الفرعية التى تعمل بجوار المنظمات الإقليمية الأوسع مثل: منظمة الجامعة العربية، ومنظمة الوحدة الأفريقية، ومنظمة الوحدة الأمريكية.

ويتطور على مدي الحقبتين الماضيتين نمو ملحوظ للدبلوماسية المعاصرة، وخاصة حول قضايا اجتماعية واقتصادية وفنية، أو ما أصبح يعرف بالقضايا العالميةGlopal Issues وهى القضايا التى أصبحت عمليا تشكل جدول أعمال للاهتمامات الملحة للمجتمع الدولى وتفرض بطبيعتها المتشابكة وآثارها الممتدة التى تتعدى حدود الدول بل والقارات، ويصبح من الصعب على دولة واحدة مهما كانت إمكانياتها أن تواجهها منفردة، ولهذا تتطلب جهدا وتنسيقا جماعيا، ومثل هذه القضايا هى التى أنعقدت حولها- وتأكيدا للصفة الدولية لها تحت رعاية الأمم المتحدة، مؤتمرات مثل البيئة، والسكان والتنمية الاقتصادية والاجتماعية، وحقوق الإنسان، والمرأة إلى جانب قضايا عريضة أخرى تنتظر وتتطلب جهدا دوليا جماعيا مثل: الإرهاب الدولى، والجريمة، والهجرة والأمراض، والتلوث والانتشار النووى ..إلخ.

وقد فرضت هذه المهام الجديدة، على الأجهزة الدبلوماسية أن تعيد تنظيم هياكلها وأولوياتها بحيث أصبحت الإدارات والأقسام التى تعالج هذه القضايا لها الأولوية على غيرها من الإدارات التقليدية التى تعالج القضايا السياسية، وانسحب هذا على الأفراد الذين يتولون هذه المهام، وأصبح هناك تنافس بين أعضاء الأجهزة الدبلوماسية على العمل والتخصص فى هذه الأنشطة الجديدة، والتى أصبحت تتطلب ثقافة وتكوينا جديدا، وأصبح ترتيب حضور مثل هذه المؤتمرات وكذلك احتمال تنظيمها موضوعيا، وإداريا، وفنيا من أهم مايشغل وزارات الخارجية والتى تتولى مسؤلية هذه المؤتمرات الدولية التى تعقد فى بلادها حتى تلك التى تعالج قضايا بعيدة عن القضايا السياسية التقليدية. سواء من حيث المشاركة الدولية فيها أو من ناحية التنظيمية واعداد الكوادر الفنية اللازمة: السكرتارية، والترجمة، ومصاحبة الوفود الزائرة..إلخ.

غير أنه مع الأهمية التى أصبحت للدبلوماسية المتعددة فى مثل هذه القضايا العالمية لتأثيرها المتزايد علي فرص استقرار السلام والأمن الدوليين، إلا أن الدبلوماسية المتعددة أصبحت تمارس الآن بشكل متزايد فى مجال هام آخر وهو العمل على تحقيق حلول للصراعاتConflict Resolution خاصة بعد أن تعقدت مثل هذه الصراعات وتعمقت بدخول عوامل عرقية ودينية، وبعدأن بات من الصعب على دولة واحدة- حتى ولو كانت قوة كبرى أن تحقق بمفردها حلا لمثل هذه الصراعات.

غير أن الخبرة قد أظهرت أن فعالية الدبلوماسية المتعددة فى تحقيق حلول لهذه الصراعات يرد عليها قيود عديدة أو سوف تظل عاجزة تقريبا طالما أصرت أطراف الصراع علي إدارة صراعهم بالوسائل العسكرية، ولا تبدأ الدبلوماسية المتعددة فى ممارسة دور فعال إلا بعد أن تستنفذ أطراف الصراع جهودها العسكرية وتصل المواجهة العسكرية بينهم إلى مرحلة الجمود Deadlock،كما تظهر خبرات الصراعات فى الشرق الأوسط، وكمبوديا، وأنجولا وأخيرا فى البلقان.

ولعل من أهم ماأصبح يميز البيئة الدبلوماسية الجديدة هو تأثرها بوسائل الإعلام والعلانية التى تفرضها عليها. ويسجل مؤرخو الدبلوماسية بدء تصدع نظام الدبلوماسية القديمة بتراجع طابع التكتم والسرية والخصوصية التى كانت تتميز بها العملية الدبلوماسية، وخاصة أهم جوانبها وهى المفاوضات. وثمة أمثلة حديثة تظهر تأثيرها وسائل الإعلام على الاتصالات الدبلوماسية وخاصة خلال الأحداث الدقيقة، وقد بدا هذا واضحا خلال أزمة الرهائن الأمريكيين فى إيران وحيث كانت الاتصالات حولها والجانب الأمريكى تحت ضغط إثارات وسائل الإعلام ومتابعاتها لحظة بلحظة للأزمة، كما بدا ذلك أيضا خلال أزمة الخليج والتى كانت فيها وسائل الإعلام طرفا أساسيا ومؤثرا فى اتجاه الأزمة وتناولها. وخلال عملية التفاوض وجلساتها يعمل المتفاوضون وفى أذهانهم ماذا سيقولونه لأجهزة الإعلام ومراسليها الذين يتربصون بهم ويلاحقونهم بعد انتهاء كل جلسة ويعلم كل جانب أنه وهو يخاطب وسائل الإعلام عن مجرى المفاوضات وماحققته من نجاح أوفشل، إنما يخاطب الرأي العام فى بلاده بكل اتجاهاته ومواقفه من موضوع المفاوضات. ولعل إدراك تأثير ذلك على عملية التفاوض وإمكانيات نجاحها هو الذي يدفع إلى ترتيب إجراء المفاوضات وخاصة حول القضايا المعقدة والشائكة في معزل تام عن عيون أجهزة الإعلام وهو ما رأيناه فى مفاوضات كامب دافيد حول قضية الشرق الأوسط، وكذلك

حول جو العزلة والسرية المطلقة التى أحاطت بالتفاوض بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية للتوصل إلى إتفاق إعلان المبادىء واختيارهم بيئة فى أقصى الشمال الأوروبى وهى النرويج لعقد هذه المفاوضات، كما تم ترتيب نفس الأجواء المنعزلة للمفاوضات التى عقدت فى دايتون بولاية أوهايو الأمريكية بين الأطراف المتصارعه حول البوسنة والهرسك.

على أية حال فإذا كان النظام الدبلوماسى يعيش الآن عصر الدبلوماسية الجديدة بمكوناتها وخصائصها التى أسلفناها، إلا أن علينا أن ندرك أنه من المنظور النظرى والعملى فإن الدبلوماسية كأى مؤسسة بشرية هى عملية ديناميكية تتعرض لتغيرات الزمن ومايأتى به من قوى ومؤثرات جديدة، لذلك نجد أن كل عصر يمر بتجديد جوهرى فى أساليبه وصيغه الدبلوماسية، الأمر الذي يتوقع معه بعض مؤرخى دبلوماسية أن صيغة اليوم من الدبلوماسية التي نصفها بأنها جديدة يمكن تختلف عن تلك التى سنجدها فى المستقبل.

والواقع أنه في معالجتنا للواقع الذى تعمل فيه الدبلوماسية الجديدة والقوى التى تتفاعل معها، فتتأثر بها وتؤثر فيها، فإننا لايجب أن نغفل قوى للتأثير أصبح لها تداخل واضح مع الدبلوماسية ونعنى بها كلا من الإعلام Media وأجهزته، وكذلك المؤسسات الأكاديمية وشخصياتها Academia:

الإعلام والدبلوماسية

فقد أصبحت الصحافة بوجه خاص ووسائل الإعلام الأخرى وخاصة الإذاعة والتليفزيون، من العوامل المؤثرة التى يعمل حسابها فى العلاقات الدولية فى عالم اليوم. والهدف الرئيسي للصحافة هو نقل المعلومات للجمهور المتعلم، وهى فى هذا عكس الدعاية Propaganda والتى تهدف الى أن تفعل كل ماهو ضروري للتأثير على العقل العام فى الاتجاه الذى تهدف إليه الدعاية. وفى كل دستور ديمقراطى فإن حرية الصحافة معترف بها ومضمونة. والصحافة الحرة فى بلد ما يفترض أنها تدخل وتوزع المعلومات دون خوف أو مبالاة وبدون تدخل من جانب أى سلطة أيا كانت، وعلى هذا فإن حرية الصحافة هى رمز على الفكر الديمقراطى. وعلى هذا فإن سلطة رابعة قوية سوف تمارس دائما تأثيرا هاما على الفكر السياسى والاقتصادى وفى الواقع على الرأي العام ككل. وقد تأكد هذا الدور الذى تقوم به الصحافة مع ارتفاع نسبة التعليم فى العالم، وما أصبح الرجل العادى فى أى مكان فى العالم يعتقده حول حرمة الكلمة المطبوعة وهو بهذا يعتبر أن أى رأى

وتعليق مطبوع فى جريدة يجب أن يكون صادقا، وهكذا فإن الصحافة تقوم بواجب هام جدا فى تعليم الرأى العام ونقل الأخبار الصادقة ووجهات النظر الصحيحة إليه، ولهذا فإذا كانت الصحافة غير حرة أويساء توجيهها فى تحمل مسئولياتها فإنها من المحتمل أن تؤدى إلى نتائج خطيرة.

أما فى البلدان ذات الديمقراطيات الموجهة أو التحكم فيها من جانب الدولة، فإن الصحافة تستخدم كآداة للترويج لأهداف الحزب الحاكم ورجاله. وفى الدول الشموليةTotalitarian فإن الصحافة تقع تحت سيطرة الدولة طالما أن السياسات التى توجه هذه النظم هى توجيه الفكر والعمل وفقا لمبادىء ونظريات هذه النظم إنما تستهدف بشكل جوهرى إلى تعزيز سلطة الدولة وهى فى كثير من الأحيان خالية من أى تفكير حر أو رأى أمين.

بهذه الرؤية للنفوذ والتأثير الذى تمارسه الصحافة فى مختلف النظم السياسية فى التأثير على الرأي العام وتوجيهه وكذلك فى عكسها لمختلف التيارات والأفكار والمواقف فى النظم الديمقراطية الحرة، ولفكر النظم الحاكمة فى الدول الشمولية، وطالما أن من أول أهداف الدبلوماسى ووظائفه هو أن يكون على إلمام ومعرفة دائمة بالأحداث والاتجاهات فى الدولة المعتمد لديها، ولذلك فإن المتابعة الدقيقة لما تنشره صحافتها تصبح من أهم مهامه اليومية. فى هذا ، يتأثر الدبلوماسى بطبيعة النظام وحالة الديمقراطية ومن ثم حرية أو تقيد الصحافة فى البلد المعتمد فيها. فإن الأمور بالنسبة له قد تبدو أنها أوضح وأكثر تحديدا فى حالة الصحافة التى تتحكم فيها الدولة إذ أنه فى هذه الحالة فإن ماتنشره هذه الصحافة من أخبار أو تعليقات ووجهات نظر إنما يعكس إلى حد كبير ويعبر عن سياسات الحكومة، أما فى الدول ذات الصحافة الحرة فإن الوضع أكثر تعقيدا بكثير حيث أن الصحف تعكس من التيارات والمواقف والآراء والمصالح بعدد تعدد التيارات والأحزاب والقوى السياسية والمصالح الاقتصادية فى هذا البلد. ويترتب على ذلك أن تكون مهمة المبعوث الدبلوماسى فى الحاله الثانية وحيث ماتعبر عنه الصحف لايعكس بالضرورة، مواقف الحكومة ونواياها بقدر مايعكس رؤية ووجهات نظر ومصالح هذه الصحف والتيارات التى تعبر عنها، غير أن هذا لايعنى أن الصحف فى المجتمعات الديمقراطية لاتقدم معلومات يعتمد عليها ومفيدة فى التعرف على الأوضاع والتطورات وكذلك المواقف من القضايا المختلفة، غير أنها تحتاج من الدبلوماسى لقدر غير قليل من الدقة، والحرص على تتبع هذه الأخبار والمعلومات لدى

المصادر الرسمية للتأكد من قربها أو بعدها من الحقيقة وأكثر من هذا من تعبيرها عن المواقف الحقيقية للحكومة. وبمثل هذا تحديا حقيقا للدبلوماسى الذى يمكن أن يقع تحت إغراء خبر هام حول وضع أو تطور محلى أو إقليمى أو دولى، خاصة إذا كان يهم دولته ويتصل بمصالحها ، ويسارع بإبلاغه لدولته أو يبنى عليه تقييماته وتوجيهاته قبل أن يتحقق من دقته وصحته..

فى ضوء هذا الدور الذى تلعبه الصحافة وأجهزة الإعلام الأخرى فى التأثير على وصياغة العقل العام فى مجتمعاتها، ومانمثله من مصادر معلومات، أصبح من الضرورى أن يقيم الدبلوماسى علاقات منظمة، ولكن منضبطة، مع ممثلى الصحافة، وأن يكونوا دائما على قائمة دعواته ومناسباته الاجتماعية، بل وكذلك لقاءات دورية محدودة خاصة مع المعلقين وكتاب الرأى وبالأخص على المهتمين والمتخصصين فى شئون بلاده ومنطقتها، ومثل هذه اللقاءات يقدم فيها الدبلوماسى مادة يعتمد عليها مثل هؤلاء الكتاب والصحفيين والمعلقين فيما يكتبونه عن قضايا تهم الدبلوماسى، وتأخذ هذه المادة عدة مستويات ابتداء من الـ Backgroumd Imformatiom حول خلفيات وأصول تطور سياسة ما، حتى تفسير دوافع وحقائق حدث قائم والh عتبارات التى تحكم بلاده منه ، ومثل هذا الشرح يساعد على أن يجنب الكاتب سوء الفهم أو سوء التقدير أو ربما تسوية هذا الموقف. ولا يقتصر مايجب أن يطوره الدبلوماسى من قنوات اتصال مع ممثل الصحافة على الكتاب والمعلقين السياسيين، بل يجب أن يشمل المتخصصين منهم فى مجالات قد لاتقل أهمية عن الشئون السياسية مثل الثقافة، والسياحة، ومن يكتبون فى شئون المال والاقتصاد بل والرياضة، وجميعها مجالات أصبحت تتصل بالاهتمامات اليومية للدبلوماسى وباهتمامات بلاده وتمثل نسيج علاقاتها بالدولة التى يعمل فيها الدبلوماسى.

الدبلوماسية والمؤسسات الأكاديمية

ثمة توتر تقليدى ومعروف- فى كل فروع المعرفة والنشاط البشرى- بين أصحاب النظريات Theroists وجامعاتهم ومراكزهم البحثية، وبين الممارسين Practicioners الذين يعملون فى الحقول العملية والتنفيذية وخاصة الذين يديرون شئون الحكومات وينفذون برامجها وسياساتها. وقد بدا هذا التوتر بين الجانبين بشكل أوضح فى مجال العلاقات الدولية والسياسات الخارجية وأداتها المنفذة لها وهى الدبلوماسية وممثليها. وتقليديا نشأ

جدل دائم دافع كل جانب عن قضيته ووجهة نظره، المستقبلية بالدبلوماسية يتملكهم الشك حول صلاحية نظريات الأكاديميين لتطبق فى حالات محددة، فالنظريات عندهم ليس لها إلا دور أصغر تلعبه فى صياغة السياسات من الحقائق فى الاقتراب من الدبلوماسية ومجالاتها الدقيقة والتى تخضع لاعتبارات معقدة بأفكار ونظريات محددة ثابتة لا يمتلكون المرونة الضرورية للتعامل مع عالم متغير، وقد يضطرون أمام هذا العالم إلى الرجوع عن نظرياتهم المسبقة أو تطويرها(*). ويرد الأكاديميين بقوة على هذا بأن الدبلوماسيين يميلون إلى إضفاء القداسة على الأوضاع التى يعملون فيها الأمر الذى يجعلهم مترددين فى أن يعترفوا بأن هذه الأوضاع يمكن أن تتعرض بسرعة للتغيير الجذرى، فطالما أنهم معتمدون لدى نظم قائمة فإن التيارات الثورية تقع خارج نطاق واجبهم ولهذا فهم يفاجأون حين تنفجر فجأة هذه النظم. كما ينتقد الأكاديميون الشكليات التى يربط بها الدبلوماسيون أنفسهم والتى تأخذ جانبا كبيرا من وقتهم وتجعلهم غير قادرين على التجديد ويرد الدبلوماسيون بأنهم إذا كان تفكيرهم لايتسم بالدقة فإن هذا لايرجع إلى كسل عقلي وإنما لأن الدبلوماسية هي فى الحقيقة علم دقيق، وفى تعبير أحد الدبلوماسيين «إن الرجال يتصرفون فى الدبلوماسية لأن من واجبهم ذلك، فبدائلهم مقيدة، وخياراتهم تحيط بها العوائق، والأرض التى يقفون عليها ليست تماما من اختيارهم».

هكذا حكمت العلاقة بين الأكاديميين والدبلوماسيين شعورا بأنهما يمثلان عالمين متباعدين كلا منهما قاصر على نفسه ومغلق على الآخر، فعالم الدبلوماسية والسفراء هو عالم السرية والغموض والمراوغة والإخلاص للمفاهيم المطلقة المقنعة بالعبارات النسبية، أما الوسط الأكاديمى فهو يتميز بالوضوح والتكامل والجرأة وحب المشاكسة وحرية التفكير والتعبير.

غير أن هذا التوتر والجدل التقليدى بين الأكاديميين والدبلوماسيين بدأ يتحرك نحو التلاقى وإدراك كل جانب أنه فى حاجة للآخر، فالأكاديميون بدأوا يدركون أنهم فى حاجة إلى الخبرة والممارسة العملية للدبلوماسية والتى تظهر لهم كيف تتحقق نظرياتهم فى الواقع، ورغم أنه من الصعب تصور أستاذ للجراحة لم يمارس أبدا عملية جراحية واحدة، إلا أن هناك العديد من أساتذة العلاقات الدولية الذين لم يتفاوضوا حول عقد اتفاقية أو

(*) يستطيع أصحاب هذا الرأى أن يدللوا عليه بمثال بارز فى شخص وزير الخارجية الأمريكى الأسبق هنرى كيسنجر والذى جاءت ممارساته الدبلوماسية فى كثير منها مخالفة للكثير مما فكر فيه وماصاغه من نظريات حول عدد من القضايا الدولية خلال مرحلته الأكاديمية.

تنافسوا حول قضية فى محفل دولى. أما الدبلوماسيون فقد بدأوا يدركون أن العلاقات الدولية تزداد تعقيدا وتشابكا وأنها لم تعد بالبساطة التى يمكن الاعتماد فى فهمها على الفطنة والذكاء والمناورة والدبلوماسية، وإن ممارستهم لعملهم الدبلوماسى سوف تكتسب قيمة ومعرفة أعمق بجوانب الوضع الذى يعالجونه أو يتحدثون عنه. وقد يساعد على هذا التلاقى والتطور الواضح فى العقدين الأخريين فى عدد المراكز البحثية والأكاديمية سواء فى داخل الجامعات أو المستقلة، كما يساعد على هذا العناصر الدبلوماسية التى انتمت للمجتمع الأكاديمى بما حصلوا عليه من درجات علمية أوبما يتمتعون به من ثقافة سياسية أوخبرات معترف بها، وقد ساهم هؤلاء فى بناء الجسور بين المؤسسات الأكاديمية والدبلوماسية. ونشهد على الواقع نتيجة هذا التحرك على الجانبين، وإن كان فى رأى البعض يأتى من جانب الدبلوماسية أكثر منه من الجانب الأكاديمى فالأجهزة الدبلوماسية تميل الآن إلى الاستعانة بالخبرات الأكاديمية فى العديد من المؤتمرات فتضم عناصرا منها إلى وفودها الدبلوماسية وخاصة فى المؤتمرات والمحافل التى تعالج قضايا تتصل بالمنظمات الدولية. فالوفد المصرى فى مؤتمر مدريد الدولى للسلام فى الشرق الأوسط-ديسمبر ١٩٩٢-ضم ٤ من أساتذة العلوم السياسية والقانون الدولى وعلم النفس. كما أن اللجنة القومية التى شكلتها الخارجية المصرية للتباحث حول قضية طابا ضمت إلى جانب العناصر الدبلوماسية أساتذة فى القانون الدولى والتاريخ.وفى اتجاه التلاقى والتفاعل بين المؤسسات الأكاديمية والدبلوماسية، أصبح من تقاليد عدد من الجامعات والمراكز البحثية المحترمة وذات التقاليد والمكانة الدولية، أن تسعى لكى تضم إليها فى صورة Fellows أوSenior Felows شخصيات دبلوماسية من التى عرف عنهم امتلاكهم لأساس علمى ومن الذين عملوا وحصلوا على خبرة دبلوماسية من المراكز الهامة التى عملوا فيها وفى مناطق ذات أهمية خاصة مثل: الاتحاد السوفيتى السابق، والشرق الأوسط مع أن عددا من هذه الجامعات والمراكز البحثية وخاصة فى العالم المتقدم أصبحت تقدم منحا دراسية للدبلوماسيين من العالم الثالث بوجه خاص، وترحب وزارات الخارجية- فى بلدانهم بذلك اعتقادا بأن هذا سوف يسهم فى تكوينهم العلمى ويفيد فى أدائهم الدبلوماسى. كذلك أصبح من الظواهر المألوفة دعوة الجامعات والمراكز البحثية للدبلوماسيين لكى يشاركوا فيما تعقده من مؤتمرات وندوات حول قضايا إقليمية ودولية.

وقد أقنعت عدد من التجارب المؤسسات الدبلوماسية أهمية الاهتمام بما تقوم به الجامعات ومراكز الدراسات من أبحاث وماتضمنه من توصيات ومقترحات حول عدد من

القضايا والمنازعات الإقليمية والدولية، ذلك إن ثبت أن بعض هذه الدراسات يمكن أن تتبناها الحكومات والمؤسسات الرسمية أو تستفيد منها فى صياغة بعض مبادراتها فى السياسة الخارجية، فالدراسة التى أعدها معهد بروكينجز موا Brookings Jnstitute فى واشنطون حول النزاع العربى الإسرائيلى فى نهاية السبعينيات، كانت هى الأسس التى بنت عليها إدارة كارتر سياستها تجاه الشرق الأوسط وكان هذا التقرير الأساس الذى طرحته فى مفاوضات كامب دافيد بين مصر وإسرائيل. كما كان العمل البحثى الذى قام به معهد فافو للبحوث الاجتماعية فى النرويج حول الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فى الأراضى الفلسطينية المحتلة هو الأساس والمدخل للدور النرويجى فى جمع إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية فى توصلهم إلى اتفاق إعلان المبادىء فى ١٩٩٣.

ومن الخبرات العملية الحديثة، أصبحت مراكز البحث تستخدم، وبرعاية وتشجيع وزارات الخارجية، لترتيب ندوات حول بعض المنازعات الإقليمية، بهدف استكشاف مواقف أطراف النزاع من خلال عناصر أكاديمية ذات صلة بالأجهزة الرسمية. وقد تعكس ـ دون ارتباط رسمى ـ مواقفها. كما أصبحت المراكز الأكاديمية قنوات غير مباشرة لنقل رسائل إلى المؤسسات الدبلوماسية وتلقى انطباعاتها واستجاباتها.

والواقع أن عددا من كتاب الدبلوماسية ومؤرخيها خاصة من دول العالم الثالث، الذين يرصدون هذا التطور فى العلاقة بين المؤسسات الأكاديمية والدبلوماسية يتوقفون بوجه خاص حول مزايا وإيجابية هذه العلاقة بالنسبة لسفراء ودبلوماسيى العالم الثالث من حيث الارتباط بعلاقات إيجابية ونشطة، وصلات منتظمة مع المراكز الأكاديمية وشخصياتها، وخاصة فى العالم المتقدم، من زاوية مايمكن أن تمثله هذه العلاقة من إيجابيات بالنسبة لصالح واحتياجات واهتمامات بلدان العالم الثالث. فهذه المراكز الأكاديمية هى موطن البحث العلمى المتقدم والتخصصات المتقدمة وفى مجالات هامة مثل تكنولوجيا الزراعة والغذاء والمياه والهندسة والإدارة، لذلك فإن نجاح السفير فى ربط جامعات بلد وأساتذتها وباحثيها وطلابها بهذه المراكز الأكاديمية المتقدمة يمكن أن يقدم خدمة جليلة لاحتياجات أساسية لعملية التنمية فى بلد الدبلوماسى النامى. ويتحقق هذا الربط من خلال علاقات تعاون مؤسسية، هى العلاقات التى سوف تتيح تقديم هذه الخبرات أساسا من خلال تبادل الأساتذة والتى ستتيح خاصة للباحثين من دول العالم الثالث التعرف بشكل مباشر على مناهج وأدوات البحث العلمى ونتائجه فى الدول المتقدمة. وحين يكون الأكاديمى والباحث يمثل بلاده فى البلد المعتمد لديها فإن مهمة السفير ومعاونيه إنما تمتد إلى خلق

الفرص لهم وتوسيع دائرة اتصالاتهم وتقديمهم إلى نطاق واسع من المؤسسات المستقلة باهتماماتهم.

ولا يقتصر نشاطات السفير فى هذا المجال على الشخصيات الأكاديمية، وإنما تمتد لتشمل الطلاب والدارسين من بلاده الذين يدرسون فى الجامعات، فالإبقاء على صلات منتظمة معهم هو أمر حاسم بالنسبة لهؤلاء الطلاب الذين يحتاجون إلى الإحساس بالهوية القومية فى بيئة أجنبية، ولذلك فالاحتفاظ بصلات منظمة معهم يساعد على جعلهم على دراية دائمة بالأمور الداخلية لبلادهم ومن ثم تقوية روابطهم بوطنهم. فالسفير وأعضاء سفارته بالنسبة لهؤلاء الطلاب والدارسين هم رمز للسيادة الوطنية واحترامهم لأنفسهم وهو أمر على جانب كبير من الأهمية والحساسية للطلاب، وعلى مستوى آخر فإن السفير لا يمثل فقط حكومته ولكن كذلك مجتمعه واهتمامه برفاهيتهم وبما يحققونه فى دراستهم وتوقعهم لعودتهم، وهم ينظرون إلى السفير باعتباره مرجعهم وقناة هامة لاتصالهم بحكومتهم واتصال حكومتهم بهم.

كما يقدم زيارات السفير أو الرجل الثانى له للدارسين من بلده فى جامعاتهم فرصا حقيقة للتعرف والاتصال بالتجمعات الطلابية والذين يمكن أن يدعوه إلى ندواتهم والتحدث أمامهم.

غير أن فرصا وفعالية علاقة مثمرة بين سفراء ودبلوماسيى العالم الثالث بالمراكز الأكاديمية فى العالم المتقدم تعتمد إلى حد كبير على المستوى المقنع علميا وشخصيا الذى يبدو به هؤلاء السفراء وعلى وضوح وعمق الرسالة التى يحملونها، وسوف يجدون أن الوسط الأكاديمى يفضل أن يستمع إلى سفير بليغ ومؤثر من دولة صغيرة على سفير من دولة كبيرة يكتفى بتكرار مواقف بلاده والبيانات المعروفة لرسمييها. وبهذا المعنى فإن الجامعات تمثل منابر يعتمد على ما اكتسبه من احترام فى دعوة سابقة، وهذا الاحترام لايتأتى من البلد التى يمثلها أو المكانة التى يشغلها وإنما بما عكسه من قدرات ثقافية جذابة ومؤثرة وفى لقاءات طلابية تمثل أهمية وخبرة غير مألوفة للطلاب ، فهم يشعرون أنهم على أرضهم وأنهم أحرار فى المناقشة وإصدار أحكامهم النقدية، وأنهم يتحدثون مع من يمارسون العمل الدبلوماسى وينفذون النظريات التى يدرسونها ويتعاملون مع الواقع بشكل عاجل، وبإحساس بأن عالم النظريات يختلف عن الواقع لذلك فإن الطلاب ذوى الحساسية والذكاء يحرصون على أن يلمسوا كيف تعمل العلاقة بينهما.